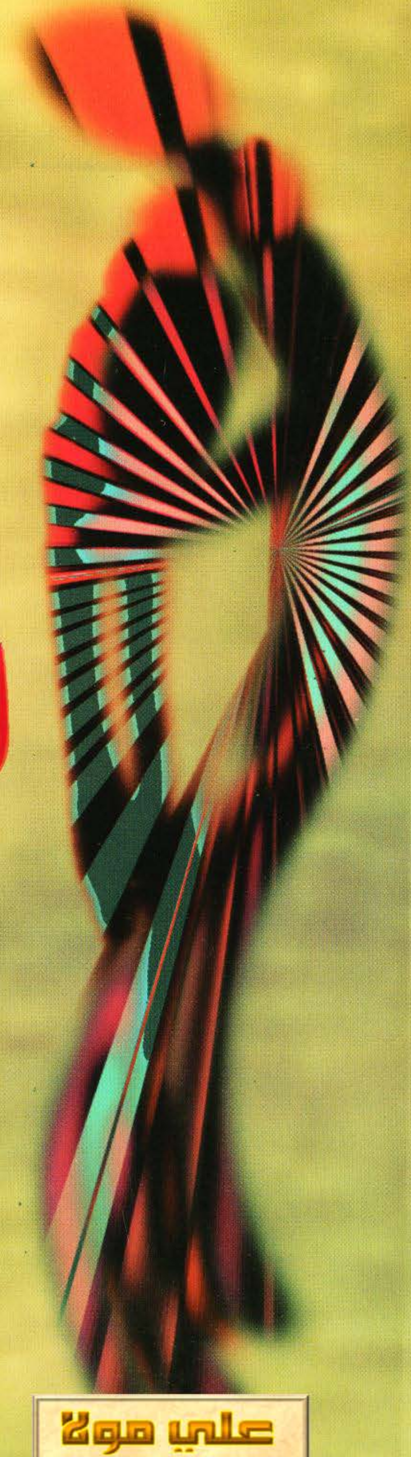
إدواردو غاليانو

كتاب المعانقات



ترجمة: أسامة اسبر

علي مولا


منتدى مكتبة الإسكندرية
www.alexandra.ahlamontada.com

كتاب المعانقات



إدواردو كاليانو

كتاب المعانقات

ترجمة: أسامة اسبر

عنوان الكتاب: كتاب المعـانقـات

اســم المؤلف: إدواردو كاليانو

اسـم المترجم: أسـامة اسـبر

الطبعة الأولى ـ 2002

دار الطليعة الجديدة

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب 34494

تلفاكس: 2311378

سماح بالطباعة صادر عن مديرية الرقابة في وزارة الإعلام

رقم ٧٠٦٦٦ ـ تاريخ ٣٠ /٩ /٢٠٠١

اخراج: هـالـة فطوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

حكايات رمزية، مفارقات، أحلام، وسيرة ذاتية، وكل ذلك يمتزج برؤية للعالم غنية وبتأكيد للإمكانية الإنسانية.

كسي الهيكل العظمي الحقيقي لحياة الكاتب باللحم والدم في هذا الكتاب الجميل بشكل غريب، الذي يمتزج فيه ويدعم بعضه بعضاً بشكل غير متوقع كل من الشعر، والقصة، والسيرة الذاتية، والتاريخ، والفنتازيا، والتعليق السياسي.

جي بريري، نيويورك تايمز بوك ريفيو

كاليانو راوي قصص متطرف، مثل غارثيا ماركيز، إيزابيل ألليندي، ونيرودا ... إن كتاب المعانقات موزاييك، أو جدارية دييغو ريبيرا وقد تحولت إلى كلمات.

جون ليونارد، نيويورك نيوزدي

في كتاب المعانقات، يسير كاليانو على حبل البهلوان ويرتقي في الجو فوقه... وليس موضوعه إلا تنوع الحياة الإنسانية والحب.

آلن رايان، واشنطن بوست بوك وورلد

في كتاب عجائب ساحر، يستخدم الكاتب الأرغوايي كاليانو تقنية تشبه الكولاج مستخدمة في ذاكرة النار... ويتحدث عن حياته وعن المشهد المعاصر... ورسومات كاليانو السريالية تكمل النص مازجة بين الخيال الجامح، والسخرية الحادة، والبهجة المعروفة.

ببليشرز ويكلي.

العالم

صعد رجل من بلدة نيغوا، الواقعة على الساحل الكولومبي، إلى السماء. حين عاد وصف رحلته، وروى كيف تأمل الحياة البشرية من مكان مرتفع. قال: *نحن بحرٌ من ألسنةِ اللهب الصغيرة.*

أضاف: *العالم كومةٌ من البشر، بحرٌ من ألسنة اللهب الصغيرة.*

كل شخص يشع بضوئه الخاص وليس هناك لسانا لهب متشابهان. ثمة ألسنة لهب كبيرة وأخرى صغيرة من جميع الألوان. ألسنة لهب بعض البشر هادئة بحيث لا تتأجج حين تهب الريح، بينما يمتلك آخرون ألسنة لهب وحشية تملأ الجو بالشرار. بعض ألسنة اللهب الغبية لا تحرق ولا تضيء، لكن ثمة أخرى تفيض بلهب الحياة بحيث أنك لا تستطيع أن تنظر إليها دون أن ترف عيناك، وإذا اقتربت منها تضيئك.

أصل العالم

لم يكن قد مضى على نهاية الحرب الأسبانية سوى بضعة أعوام، وكان الصليب والسيف يحكمان فوق أطلال الجمهورية. كان أحد المهزومين، وهو عامل فوضوي خرج حديثاً من السجن، يبحث عن عمل. بحث في السماء

وعلى الأرض دون جدوى. لم يكن هناك عمل لشيوعي. نظـر الجميـع إليـه بنفور، هزوا أكتافهم، وأداروا ظهورهـم. لم يمنحـه أحـد فرصـة أو يصغـي إليه. وكانت الخمرة هي الصديق الوحيـد الـذي بقـي لـه. في الليـل، أمـام الصحون الفارغة، تحمَّل صامتاً توبيخ زوجته المؤمنة، التي لم تفـوِّت بتاتـاً القداس، بينما كان ولده الصغير يقرأ له كتاب العقيدة الدينية.

روى لي القصة خوسيب بـيردورا، ابـن ذلـك العـامل الملعـون. رواهـا في برشلونة حين وصلت إلى منفاي هناك. كان ولداً يائسـاً أراد أن ينقـذ والـده من اللعنة الأبدية، لكن والده، الملحد والعنيد، لم يصغ لصوت العقل.

قال له خوسيب وهو يبكي: «*لكن يـا أبـي، إن كـان الله غـير موجـود، فمن الذي خلق العالم؟*»

قال العامل وهو يخفض رأسه كأنه سيفشي سراً:

«*أيها الغبي! أيها الغبي! إن من خلق العالم هو نحن: البناؤون.*»

وظيفة الفن ١

لم يـر دييغـو المحيـط أبـداً، فـأخذه والـده، سـانتياغو كوبـادلوف، ليستكشفه.

اتجها جنوباً.

كان المحيط يستلقي منتظراً وراء كثبان رملية مرتفعة.

حين وصل الطفل ووالده في النهاية إلى الكثبان الرملية بعد سير طويـل، انفجر المحيط أمام أعينهما.

كان ضخماً ومتلألئاً وعقد جماله لسان الطفل.

حين فكت عقدة لسانه طلب من والده وهو يرتجف ويفأفئ:

«*ساعدني لكي أرى.*»

العنب والخمر

على فراش الموت، تحدث رجل يعمل في الكروم في أذن مرسـيليا. قبـل أن يموت كشف السر هامساً:

«إن العنب مصنوع من الخمر.»

هذا مـا روتـه لي مارسـيلا بـيريث – سـيلبا، وبعدهـا فكـرت: إذا كـان العنب مصنوعاً من الخمر، فربما نكون الكلمات التي تروي من نحن.

حب الكلام/١

كانت مارسيلا تزور الشمال الثلجي. في إحدى الليالي، قابلت في أوسـلو امرأة تغني وتروي القصص. بين الأغاني، تنسج القصـص، وهـي تنظـر إلى قطع الورق كشخص يقرأ البخت من القصاصات.

كانت تلك المرأة التي من أوسلو ترتدي فستاناً ضخمـاً مليئـاً بـالجيوب. وتسحب قطع الورق من جيوبها واحدة بعد أخرى، في كـل واحـدة قصـة، قصص مجربة وحقيقية عن بشر رغبوا في أن يعـودوا إلى الحيـاة مـن خـلال السـحر. وهكـذا بعثـت الموتـى والمنسـيين، ومـن أعمـاق فسـتانها قفـزت الأوديسات وقصص حب الحيوان البشـري الـذي يتـابع الحيـاة، ويواصل النطق.

حب الكلام/٢

هذا الرجل، أو المرأة، حامل بعدد كبير من البشر. البشر يخرجون مـن مسامه. بهذه الأشكال الفخارية، يعبر هنود بويبلـو المكسـيكيون،عـن راوي

الحكايات: ذلك الذي يروي الذاكرة الجمعية، التي تزدهر بفضل عدد قليل من البشر.

منزل الكلمات

حلمت هيلينا بياغرا أن الشعراء دخلوا منزل الكلمات. الكلمات محفوظة في قوارير زجاجية قديمة، تنتظر الشعراء، مجنونة من الرغبة ليتم اختيارها: ترجّت الشعراء أن ينظروا إليها ويلمسوها ويلحسوها. فتح الشعراء الزجاجات، جرّبوا الكلمات على رؤوس أصابعهم، قبّلوا شفاهها أو جعّدوا أنوفها. بحث الشعراء عن كلمات يجهلونها وكذلك عن كلمات كانوا يعرفونها لكنهم ضيّعوها.

في منزل الكلمات طاولة ألوان قدّمت نفسها في ينابيع كبيرة وأخذ كلُّ شاعر اللون الذي يحتاجه: اللون الليموني أو اللون الشمسي، الأزرق البحريّ أو الأزرق الدخاني، اللون القرمزي أو الأحمر الدموي، أو اللون الخمري...

وظيفة القارئ/1

حين كانت لوثيّا بيلايث صغيرة جداً قرأت رواية وهي تحت الأغطية. قرأتها جزءاً بعد آخر، ليلة بعد أخرى، وكانت تخبئها تحت مخدتها. لقد سرقتها عن رف خشب الأرز حيث كان عمها يحفظ كتبه المفضلة.

مع مرور الأعوام، سافرت لوثيا بعيداً.

سارت على الأحجار في نهر أنتيوكيا، بحثاً عن الأشباح، وبحثاً عن البشر، مشت في شوارع مدن عنيفة.

قطعت لوثيا طريقاً طويلاً، وفي مسار أسفارها كانت ترافقها دائماً أصداءُ أصداء تلك الأصوات البعيدة التي سمعتها بعينيها حين كانت صغيرة.

لمَ تقرأ لوثيا الكتاب مرة أخرى. لم يعد بوسعها أن تتذكره. لقد نما في داخلها بحيث تحول الآن إلى شيء آخر: إنه هي الآن!

وظيفة القارئ/٢

مر نصف عام على وفاة قيصر باييخو، وكان هناك احتفالات. في أسبانيا نظم خوليو بيليث المحاضرات، حلقات البحث، النشرات التذكارية، ومعرضاً قدم صوراً للشاعر وأرضه وزمنه وشعبه.

لكن خوليو بيليث التقى آنذاك بخوسيه مانويل كاستانون، وبدا الاحتفال بلا معنى.

كان خوسيه مانويل كاستانون نقيباً في الحرب الأسبانية. قاتل من أجل فرانكو، ففقد يداً وربح أوسمة متنوعة.

في إحدى الليالي، بعد الحرب بوقت قليل، عثر النقيب، مصادفة، على كتاب محظور. ألقى عليه نظرة وقرأ سطراً، ثم قرأ آخر ولم يستطع أن يبعد نفسه عنه بعد ذلك.

جلس النقيب كاستانون، بطل الجيش المنتصر، طول الليل، وقرأ – ثم قرأ من جديد مأسوراً – قيصر باييخو، شاعر المهزومين. في الصباح التالي استقال من الجيش ورفض أن يأخذ قرشاً واحداً من حكومة فرانكو.

فيما بعد سجنوه وبعد ذلك ذهب إلى المنفى.

احتفاء بالصوت البشري/ ١

كان هنود شوار، المعروفون كذلك باسم خيباروس، يقطعون رؤوس أعدائهم المهزومين. يقطعون الرؤوس ويقلصونها إلى أن تصبح بحجم راحة

اليد، وذلك لكي يمنعوا المحاربين المهزومين من العودة إلى الحياة. لكن العدو المهزوم لا ينهزم، بشكل كامل، ما لم يختم فمه، فكانوا يخيطون شفتيه بخيط لا يتعفن مطلقاً.

احتفاء بالصوت البشري / ٢

أيديهم تقيد أو تكبّل، ومع ذلك كانت أصابعهم ترقص، تطير أو ترسم كلمات. تغطى وجوه المساجين، لكنهم، حين يستندون إلى الخلف، يستطيعون أن يشاهدوا قليلاً، فقط قليلاً، هناك في الأسفل. ورغم أن الكلام ممنوع، كانوا يتحدثون بأيديهم. ولقد علمني بينيو أنغرفيلد أبجدية الأصابع، التي تعلمها في السجن دون مدرّس:

قال لي: «*كانت كتابة بعضنا سيئة. آخرون كانوا أساتذة في خط اليد.*»

أرادت الديكتاتورية في الأوروغواي من كل شخص أن يقف وحيداً، ألا يكون أحداً: في السجون والثكنات، وفي البلاد كلها، كان التواصل جريمة.

أمضى بعض السجناء أكثر من عشر سنوات مدفونين في زنزانات منفردة بحجم التوابيت، لا يسمعون شيئاً سوى صوت القضبان أو الخطوات في الممرات. فرنانديث ويدوبرو وموريثيو روزنكوف اللذان حكم عليهما كذلك، بقيا على قيد الحياة لأنهما استطاعا التحدث مع بعضهما بعضاً من خلال النقر على الحائط. بتلك الطريقة تحدثا عن الأحلام والذكريات، الدخول في الحب والخروج منه، تناقشا، تعانقا، تقاتلا، تقاسما المعتقدات والحسناوات، الشكوك والذنوب، وتلك الأسئلة التي ليس لها أجوبة.

حين يكون الصوت الإنساني حقيقياً، حين يولد من الحاجة إلى الكلام، لا أحد يستطيع أن يوقفه. حين يمنع عنه الفم، يتحدث بالأيدي والأعين، بالمسام، أو بأي شيء آخر. لأن كل واحد منا لديه شيء يقوله للآخرين، شيء يستحق أن يحتفي به الآخرون أو يصفحوا عنه.

تعريف الفن

«*بورتيناري ليس هنا*»، قال بورتيناري. أخرج أنفه للحظة، أغلق الباب واختفى.

حدث هذا في الثلاثينات، في أعوام اصطياد السحرة الشيوعيين في البرازيل، وبورتيناري نفى نفسه في مونتيفيديو.

لم يكن إيفان كميد من تلك الأعوام أو ذلك المكان، ولكن بعد ذلك بوقت طويل، ظهر عبر ثغور في ستارة الزمن وروى لي ما رآه: كان كانديدو بورتيناري يرسم من الصباح إلى المساء، وفي الليل كذلك.

كان يقول: «*بورتيناري ليس هنا*.»

في ذلك الوقت، كان المفكرون الشيوعيون في الأوروغواي يتبنون الواقعية الاشتراكية وأرادوا رأي صديقهم ذي الشأن.

قالوا له متوسلين: «*نعرف أنك لست هناك، لكن ألا تمنحنا لحظة؟ لحظة فحسب؟*»

وطرحوا السؤال.

قال بورتيناري: *لا أعرف*.

ثم: *كل ما أعرفه هو هذا: إما أن يكون الفن فناً وإما أن يكون برازاً*.

لغة الفن

كان تشينولوبي يبيع الصحف ويلمع الأحذية في هافانا. ولكي ينجو من البؤس ذهب إلى نيويورك.

هناك، أعطاه شخص كاميرا قديمة. لم يسبق أن أمسك تشينولوبي بكاميرا، لكنهم قالوا له إن المسألة سهلة:

«فقط تنظر من هنا وتضغط هناك.»

وهكذا انطلق إلى الشوارع. ولم يكن قد سار طويلاً حين سمع صوت إطلاق النار. دخل إلى صالون الحلاقة، رفع الكاميرا، نظر هنا وضغط هناك.

في صالون الحلاقة أطلقوا النار على زعيم العصابة ألبرت أناستاسيا بينما كان يحلق ذقنه، وكانت تلك أول صورة لتشينولوبي في حياته المهنية.

دفعت له ثروة. كانت الصورة انقلاباً لأن تشينولوبي نجح في تصوير الموت. كان الموت هناك: ليس في الرجل الميت، وليس في القاتل، وإنما في وجه الحلاق الذي ينظر.

حدود الفن

كانت أطول معركة من بين المعارك التي خيضت في توسكاتلان أو أي جزء من السلفادور. بدأت في منتصف الليل حين سقطت القنابل اليدوية الأولى من جانب التل، واستمرت طوال الليل حتى مساء اليوم التالي. قال العسكر إن ثنكويرا منيعة. هاجمها رجال العصابات أربع مرات ولم يكن نصيبهم سوى الفشل. في المرة الخامسة، حين رفعت الراية البيضاء فوق موقع القيادة، أشارت الطلقات التي أطلقت في الجو إلى بداية الاحتفالات.

كان (خوليو آما) الذي قاتل في الحرب وصورها، يتجوّل في الشوارع. يحمل بندقية بيده وكاميرا، مذخرة أيضاً وجاهزة للإطلاق، حول عنقه. انطلق في الشوارع المغبرة بحثاً عن التوأمين. والتوأمان هما الوحيدان اللذان بقيا حيين من القرية التي أبادها الجيش. كانا في السادسة عشرة من عمرهما. أحبا أن يقاتلا إلى جانب خوليو الذي كان يعلمهما، بين المعارك، القراءة والتصوير. في وطيس المعركة، أضاع خوليو التوأمين ولم يستطع العثور عليهما بين الأحياء أو الأموات.

سار عبر الحديقة. في زاوية عند كنيسة، دخل زقاقاً. وهناك، عثر عليهما في النهاية. كان أحدهما يجلس على الأرض مسنداً ظهره إلى حائط. الآخر كان جالساً مستنداً إلى ركبتيه وملطخاً بالدم. عند أقدامهما، وعلى شكل صليب، توضّعتً بندقيتاهما.

اقترب خوليو ـ ربما قال شيئاً ما. التوأم الحي لم يتحدث أو يتحرك. كان هناك ولم يكن هناك. عيناه اللتان لم تطرفا كانتا تنظران دون أن تشاهدا، ضاعتا في مكان ما، في اللامكان، وذلك الوجه الذي بلا دموع كان الحرب كلها والألم كله.

وضع خوليو بندقيته على الأرض وأمسك كاميرته. قدم الفيلم، قاس الضوء والمسافة في ومضة، وركّز. كان الأخوان في مدى عدسته بلا حراك، صورتهما الجانبية مكتملة إزاء الحائط المثقوب حديثاً بالرصاص.

كان خوليو على وشك التقاط صورة حياته، لكن إصبعه رفضت ذلك. أخفض الكاميرا دون أن يحرر مصراعها، وانسحب صامتاً.

الكاميرا، التي من نوع مينولتا، ماتت في معركة أخرى وأغرقها المطر بعد عام.

وظيفة الفن/ ٢

أخبرني الواعظ ميغيل بيرن أنه زار منذ بضع سنوات الهنود في منطقة تشاكو في البارغواي. كان عضواً في بعثة تبشيرية. زار المبشرون زعيماً اعتبر حكيماً جداً. الزعيم، الذي هو رجل هادئ وسمين، أصغى دون أن تطرف عيناه إلى الدعاية الدينية التي قرؤوها له بلغته الأصلية. حين انتهوا، انتظر المبشرون رد فعله.

أخذ الزعيم وقته ثم قال:

«*هذا يحك. يحك بشكل قاس وبشكل جيد جداً.*»

ثم أضاف:
«لكنه يحك حيث لا توجد حكة.»

نبوءات/١

في البيرو، غطتني عرّافة بورود حمراء ثم قرأت بختي. أعلنت:
«في غضون شهر سوف تتلقى امتيازاً.»
ضحكتُ. ضحكتُ من الطيبة اللانهائية لتلك الغريبة التي قدمت لي أزهاراً وتنبؤات عن النجاح. وضحكت من كلمة امتياز التي اعتبرتها سخيفة، ولأنني تذكرت صديقاً قديماً في حارتي بسيطاً جداً لكنه كان دائماً دقيقاً، اعتاد أن يقول ممرراً الجملة وهو يرفع إصبعه:
«عاجلاً أم آجلاً، يتحول كل كاتب إلى همبرغر[1].»
وهكذا ضحكت وضحكت العرافة من ضحكي.
بعد شهر، تلقيت برقية في مونتفيديو. قالت البرقية إنني منحت امتيازاً في تشيلي.
كان هذا جائزة خوسيه كاراسكو.

احتفاء بالصوت البشري/٣

كان خوسيه كاراسكو يعمل لصحيفة أناليسيس. في صباح باكر، في ربيع ١٩٨٦، جُرَّ من منزله. قبل ذلك ببضع ساعات، تمت محاولة لاغتيال الجنرال أوغستو بينوشيه، وقبل ذلك ببضعة أيام قال الديكتاتور:
«نحن نراقب سادة محددين.»

---

[1] – لعب على الكلمات والمقصود هو أن الكاتب يتبرجز.

عند أسفل حائط على حافة سانتياغو ثقبوا رأسه بأربعين طلقة. كان هذا في الصباح الباكر ولم يشاهد أحد في المكان. استلقى جسده على الأرض هناك حتى منتصف النهار.

لم يغسل الجيران الدم مطلقاً. أصبح المكان ملاذاً للفقراء، وزين دائماً بالشموع والأزهار، وأصبح خوسيه كاراسكو مجترح معجزات. على الحائط المثقب بالرصاص، يستطيع المرء أن يقرأ الشكر لأعمال المعروف التي تم تلقيها.

في بداية ١٩٨٨سافرتُ إلى تشيلي. كان هذا بعد خمسة عشر عاماً من ذهابي إلى هناك. استقبلني في المطار خوان بابلو كارديناس، محرر المجلة.

بعد أن حكم عليه بارتكاب مساوئ ضد الحكومة، كان كارديناس ينام في السجن. يدخل السجن كل ليلة تماماً في العاشرة ويخرج مع شروق الشمس.

تاريخ مدينة سانتياغو

كانت سانتياغو دي تشيلي، مثل المدن الأميركية اللاتينية الأخرى، تمتلك وجهاً متوهجاً. مقابل أقل من دولار في اليوم كانت فيالق العمال تلمّع القناع.

في مقاطعات الطبقات العليا، كان البشر يعيشون كما يفعلون في ميامي، كما يعيشون في ميامي، الحياة تم تحويلها وفق تلك المدينة: ملابس بلاستيكية، طعام بلاستيكي، بشر بلاستيكيون، والفيديوهات والكمبيوترات دلائل على السعادة.

لكن كان هناك القليل من هؤلاء التشيليين، والكثير من أولئك التشيليين الزائفين. الاقتصاد يلعنهم، الشرطة تطاردهم والثقافة تنكر وجودهم.

أصبح البعض شحاذين. هازئين من عمليات المنع، رتبوا الظهور تحت إشارات المرور الحمراء أو في أي مدخل. ثمة شحاذون من جميع الأحجام

والألـوان، كـاملون ومشـلولون، مخلصـون وزائفـون، البعـض في يـأس كامل وعلى حافة الجنون، البعض يعرضون وجوهـاً ملويـة وأيديـاً مرتجفـة تدربـوا عليهـا بشـكل جيـد: محـترفون مثـيرون للإعجـاب، فنـانو تسـول حقيقيون.

في عز الدكتاتورية العسكرية، كان أفضل الشـحاذين التشيليين شـخصاً يثير شفقة طريدته بقوله:

«أنا إنسان.»

نيرودا/ ١

كنت في إسلا نيغرا، في المنزل الذي كان، الذي هو، منزل بابلو نيرودا.

لم يسمح لأحد بالدخول. كان سياج خشبي يحيط بالمنزل وعليـه كتـب البشـر رسـائلهم إلى الشـاعر. لم يـترك إنـش مـن الخشـب عاريـاً. تحـدث جميعهم معه كأنه حي. بأقلام الرصاص أو رؤوس المسامير، وجدت جميـع الأيدي طريقة لشكره.

وأنا وجـدت طريقـة كذلـك، بـدون كلمـات. دخلـت دون دخـول. كنـا نتحدث بصمت عن الخمور، أنا والشاعر، نتحدث بهدوء عـن المحيطـات والحب، وعن علاج للصلع ناجع. تقاسمنا بعض قريدس البـل بـل وفطـيرة سرطانات مدهشة وأعاجيب أخرى تجعل الـروح والبطـن يغتبطـان: الـروح والبطن، كما يعرف هو جيداً، هما اسمان للشيء نفسه.

رفعنا كأسين من الخمـرة الرائعـة مـرة بعـد أخـرى، وجلـدت وجـهينـا ريـح مالحـة. كـان هـذا كلـه طقـس لعنـة ضـد الديكتاتوريـة، ذلـك الرمـح الأسـود الـذي ينغـرز في خاصرتـه، ذلـك الألم ابـن القحبـة، وكـان كذلـك طقسـاً للاحتفـاء بالحيـاة ـ الجميلـة والعـابرة كمذابـح الأزهـار والعشـق العابر.

نيرودا/ ٢

حدث هذا في لا سيباستيان، على جانب الجبل الذي يطل على خليج بالبارايسو. كان المنزل مهجوراً منذ زمن طويل، مختوماً بشدة بالحجر والقضبان المستعرضة، بالأقفال والمفاتيح.

استولى الجيش على السلطة، وتدفق الدم في الشوارع، ومات نيرودا من السرطان ـ أو الأسى. وفجأة جذبت أصوات غريبة من المنزل المسور انتباه الجيران. نظر أحدهم من نافذة مرتفعة وشاهد نسراً غامضاً بعينين متوهجتين، ومخالب مستعدة للهجوم. لم يكن بوسع النسر أن يكون هناك أو أن يدخل ـ لم تكن هناك طريقة ـ لكنه كان في الداخل، وهناك، داخل المنزل، كانت أجنحته ترف بعنف.

نبوءات/ ٢

حلمت هيلينا بحافظات النار. خزنت أكثر النساء فقراً النار بعيداً في مطابخ في الضواحي وكان عليهن أن ينفخن في راحات أكفهن بلطف شديد فحسب لكي يشعلنها من جديد.

احتفاء بالفنتازيا

حدث هذا عند مدخل بلدة أويانتايتامبو، قرب كوثكو. فصلت نفسي عن مجموعة من السياح وكنت أقف وحيداً على الأطلال الحجرية حين جاء طفل نحيل من الجوار يرتدي الأسمال وطلب مني أن أمنحه قلمي. لم أستطع أن أفعل ذلك لأنني كنت أستخدمه لكي أدون جميع أنواع

الملاحظات المضجرة، لكنني عرضت عليه أن أرسم له خنزيراً صغـيراً علـى يده.

فجأة انتشر الخـبر. وأحـاطت بـي مجموعـة مـن الأولاد الذيـن طلبـوا، بأعلى صوتهم، أن أرسم على أيديهم الصغيرة، المشققة من الطـين والـبرد، وجلودهم المحروقـة حتـى أصبحـت جلـوداً. أحدهـم طلـب كنـدوراً، آخـر ثعباناً، وفضل آخرون ببغاوات وبومات، فيما طلب آخرون شبحاً أو تنيناً.

عندئذ، وفي وسط تلك الجلبة، أراني طفل متشرد، لا يكاد يرتفع ياردة عن الأرض، ساعة مرسومة بالحبر الأسود على رسغه.

«*عم لي يعيش في ليما أرسلها إلي*»، قال.

«*وهل هي مضبوطة بشكل جيد؟*» سألته.

قال: «*إنها بطيئة قليلاً.*»

فن للأطفال

كانت تجلس على كرسي مرتفع أمام صحن مـن الحسـاء علـى مسـتوى العـين. أنفهـا مجعـد، أسنانها محكمـة الإغـلاق، وذراعاهـا متصالبتـان. توسلت الأم من أجل المساعدة:

قالت متوسلة: «*احك لها حكايـة يـا أونوليـو، أنـت الكـاتب. ارو لهـا حكاية.*»

ملوحاً بملعقة من الحساء بدأ أونيليو خورخي كاردوسو قصته:

«*مرة كان هناك طـائر لم يـرد أن يتنـاول عشـاءه. أحكـم الطـائر إغـلاق منقاره وقالت له أمه: ستكون دائماً طائراً صغيراً إذا لم تأكل النـنـي. لكـن الطائر لم ينتبه إلى أمه ولم يفتح منقاره...*»

عندئذ انفجرت الطفلة:

«*يا له من طائر حقير!*»

فن الأطفال الخاص

كان ماريو مونتينيغرو يغني القصص التي يرويها له أبناؤه. يجلس على الأرض مع غيتاره وسط دائرة من الأطفال. والأطفال ـ أو الأرانب ـ يروون له قصة الأرانب السبعين التي تسلقت على ظهور بعضها بعضاً لكي تقبل الزرافة، أو قصة الأرنب الأزرق الذي كان وحيداً وسط السماء: أخذت نجمة الأرنب الأزرق في نزهة في السماء وزارا القمر، الذي هو أرض دائرية كبيرة مليئة بالثقوب، ودارا في الفضاء، قفزا على الغيوم القطنية، وبعد ذلك تعبت النجمة وعادت إلى أرض النجوم، فيما عاد الأرنب إلى أرض الأرانب، وهناك أكل الذرة وتبرز وذهب إلى النوم وحلم بأنه أرنب أزرق وحيد وسط السماء.

أحلام هيلينا

في تلك الليلة تمنت سلسلة من الأحلام أن يُحْلَمَ بها، لكن لم يكن من الممكن بالنسبة إلى هيلينا أن تحلم بها كلها. أحدها، وهو حلم لم تتعرف عليه، ألح بقضيته:

«*احلميني ـ سأكون جديراً ببرهتك. احلميني ـ سوف تحبينني.*»

عدد من الأحلام التي لم تحلم مطلقاً من قبل وقفت في صف، لكن هيلينا تعرفت على الحلم البليد الذي واصل مجيئه، الحلم البليد، وأحلام أخرى مضحكة أو كئيبة كانت أصدقاء قدامى من أيام ليالي التحليق المرتفع.

رحلة إلى أرض الأحلام

كانت هيلينا تسافر في عربة يجرها حصان إلى الأرض التي يُحلم فيها بالأحلام. كانت كلبتها بيبا لومبن تجلس إلى جانبها في مقعد الحوذي

وتحت ذراعها تحمل دجاجة ذاهبة إلى العمل في حلمها. أحضرت هيلينا معها صندوقاً كبيراً مليئاً بالأقنعة والسجاد المتعدد الألوان.
الطريق يغص بالبشر الذاهبين إلى أرض الأحلام، وكانوا يحدثون فضيحة ويثيرون جلبة وهم يتدربون على أحلامهم بحيث أن بيبا لم تفعل شيئاً سوى أنها دمدمت، لأنها لم تستطع أن تركز بشكل ملائم.

أرض الأحلام

كانت مخيماً ضخماً.
قفزت رؤوس مغنية من الخس وشجرات الفلفل المضيئة من قبعات سحرية وكان هناك بشر يبيعون الأحلام. أحدهم أراد أن يبيع حلم سفر بحلم حب، وعرض آخر حلماً لكي يجعلك تضحك مقابل حلم يسبب لك بكاء جيداً.
رجل واحد تجول بحثاً عن قطع حلمه، الذي حطمه شخص ما وقف في طريقه. كان يلتقط القطع ويرتبها مع بعضها بعضاً ليصنع راية متعددة الألوان.
سقاء الحلم الفتى يحضر الماء لأولئك الذين يعطشون وهم نائمون. يحمل الماء على ظهره في إناء فخاري ويوزعه في كؤوس طويلة.
كانت هناك امرأة في برج ترتدي صدرة بيضاء وتمشّط ضفائرها التي تتدلى إلى قدميها. المشط يسفح أحلاماً مليئة بجميع مواصفاتها: كانت الأحلام تطير من شعرها إلى الجو.

أحلام منسية

حلمت هيلينا أنها نسيت أحلامها المنسية في جزيرة. جمعت كلاريبل ألغريا أحلام هيلينا مع بعضها بعضاً، ربطتها بشريطة ووضعتها في مكان

لتحفظها. لكن أطفالهـا اكتشـفوا المخبـأ وأرادوا أن يجربـوا أحـلام هيلينـا.
قالت لهم كلاريبل بخشونة:
«*لا تلمسوها مطلقاً*.»
ثم اتصلت هاتفياً بهلينيا وسألتها:
«*ما الذي سأفعله بأحلامك؟*»

الأحلام تغادر

كانت الأحلام منطلقة في رحلة. ذهبت معها هيلينـا إلى محطـة القطـار. ودعتها عن المنصة، ملوحة بمنديلها.

احتفاء بالواقع

لو روت عمة داماسو مورو قصتها لغارثيا ماركيز لكان مـن المحتمـل أن ينهي رواية **قصة موت معلن** بشكل مختلف.

في أيامها الجيدة، امتلكت سوزانا كونتريراس ـ هكـذا كـان اسـم عمـة داماسو ـ أكثر المؤخرات إلهاباً والتي سبق أن شوهدت في بلدة إسكوينابا أو في أي مكان قرب خليج كاليفورنيا.

منذ سنوات، تزوجـت سـوزانا أحـد الشـبان الأنيقـين الكثـيرين الذيـن استسلموا لردفيها المتأرجحين. ليلة الزفاف، اكتشف زوجهـا أنهـا ليسـت عذراء. وهكذا رمى سوزانا الملتهبـة وكأنهـا مصابـة بطـاعون، أغلـق البـاب وغادر.

بدأ العريـس المسـتاء يشـرب في الحانـات حيـث كـان ضيـوف الزفـاف يتابعون مرحهم الصاخب. وهو يعانق أصدقاءه بدأ يطلق ملاحظات مسـتاءة ويقوم بالتهديد، لكن لم يتعامل أي شخص مع عذابه القاسي بشكل جدي.

أصغوا إليه بكرم وهو يبتلع الدموع التي انحدرت من عينيه كما يفعل الفحل. لكنهم أخبروه، عندئذ، أن هذا لا يكاد يكون خبراً، وأن سوزانا بالطبع لم تكن عذراء، وأن المدينة كلها تعرف ذلك باستثنائه، وأنه، في النهاية، تفصيل لا أهمية له ولا تكن أَبْلَهَ، يا رجل، فأنت لا تعيش إلا مرة واحدة. ألح، ولكن بدلاً من إيماءات التضامن، لم يتلق إلا التثاؤبات.

وهكذا اقترب الليل، الذي تتابع في فورة من الحزن والشراب، من الفجر. واحداً واحداً غادر الزوار إلى النوم، وبقي الرجل المساء إليه جالساً إلى الصباح في الشارع، وحيداً ومنهكاً من الأنين دون أن ينتبه إليه أحد.

ضجر من مأساته، وأزال ضوء النهار الأول توقه إلى المعاناة والانتقام. في منتصف الصباح استحم جيداً واحتسى فنجاناً ساخناً من القهوة اللذيذة وفي الظهيرة عاد، منسحق الفؤاد، إلى ذراعي المرأة المزدرية. جاء في موكب من السائرين، بخطو سريع من النهاية البعيدة للشارع. كان يحمل حزمة ورد كبيرة ويقود عرضاً من الأصدقاء، والأقرباء، والجمهور العام. وكانت فرقة موسيقية في المؤخرة تعزف من أعماق قلبها لسوزانا ـ تائبة ـ لا نيغرا كونسينتيدا وبيريدا تروبيكال. وكانت هذه هي الألحان التي أعلن بها هيامه منذ وقت قصير.

الفن والواقع / ١

كان فرناندو بيري ذاهباً ليصور فيلماً عن قصة الملاك التي كتبها غارثيا ماركيز، وأخذني معه لأرى الخلفية. على الساحل الكوبي، بنى فرناندو قرية كرتونية صغيرة وملأها بالدجاج، السرطانات الضخمة، والممثلين. كان سيلعب الدور الرئيسي، دور الملاك المنتوف الذي يسقط على الأرض ويسجن في قن للدجاج.

مارثيال، الصياد المحلي، عُيِّنَ، بوقار، حاكماً للبلدة السينمائية. بعد التحية الرسمية، رافقنا مارثيال. أراد فرناندو أن يريني رائعة فنية هي

المأوى الصناعي: قفص متداع، قذر ومهدم يحته الصدأ والأوساخ القديمة. كان هذا هو سجن الملاك بعد طيرانه من قن الدجاج. ولكن بدلاً من هذا القفص، الذي هدمه فنياً، الأخصائيون، وجدنا قفصاً نظيفاً حالته ممتازة، قضبانه متساوية بشكل كامل ومطلية بالذهب حديثاً. انتفخ مارثيال بالكبرياء حين أرانا الأعجوبة. فرناندو، نصف مندهش ونصف غاضب، كان على وشك أن يأكله حياً:

«*ماهذا يا مارثيال، ما هذا؟*»

صعق مارثيال. احمرَّ، حك رأسه ثم بطنه واعترف:

«*لم أستطع أن أسمح بذلك. لم أستطع أن أسمح لهم أن يضعوا رجلاً طيباً مثلك في ذلك القفص* المقرف.»

الفن والواقع/ ٢

لعب إراكليو ثيبيدا دور بانتشو بيا في فيلم المكسيك المتمردة الذي أخرجه Paul Leduc، ولعب الدور بشكل جيد بحيث، مذاك، اعتقد البعض أن إراكليو ثيبيدا هو الاسم الذي يستخدمه بانتشو بيا حين يعمل في تمثيل الأفلام.

كانوا قد أنهوا نصف الفيلم، في قرية ما صغيرة، وكان الناس يشاركون في كل شيء بطريقة طبيعية جداً دون أن يضطر المخرج للتفوه بأية كلمة. مات بانتشو بيا منذ نصف قرن، ولكن لم يندهش أحد من احتمال عودته وظهوره في المكان. في إحدى الليالي، وبعد يوم عمل مجهد، تجمعت بعض النسوة أمام البيت الذي كان ينام فيه إراكليو وطلبن منه أن يتدخل لصالح بعض المحليين المسجونين. في الصباح التالي، المبكر والمتألق، ذهب ليتحدث مع العمدة.

«*كان على الجنرال بيا أن يأتي ليطبق العدالة*»، هكذا علق الناس.

الواقع مجنون كمصلح القبعات

«قل لي شيئاً. قل لي إن كانت الماركسية تمنع أكل الزجاج. أحب أن أعرف ذلك.»

حدث هذا في منتصف السبعينات، في الجزء الشرقي من كوبا. كان الرجل يقف في المدخل، منتظراً. التمست عذره. قلت إنني لا أعرف الكثير عن الماركسية، لا أعرف سوى القليل، القليل جداً، ومن الأفضل له أن يستشير أخصائياً في هافانا.

قال: *«أخذوني مسبقاً إلى هافانا حيث فحصني الأطباء. زارني القومندان. قال لي فيديل: انظر إلي: هل تفعل ذلك بسبب الجهل؟»*

وبسبب تناوله للزجاج سحبوا منه بطاقة الشبيبة الشيوعية.

«لقد فحصوني هنا في باراكواو.»

كان تريخيمو سواريث رجل ميليشيا مثالياً، قاطع قصب سكر على الخط الأول وعاملاً طليعياً ـ من النوع الذي يعمل عشرين ساعة ويطلب أجرة ثماني ساعات. كان دائماً أول من يخطو إلى الأمام ليقطع قصب السكر أو يحمل بندقية، لكنه كان مولعاً بالزجاج.

قال لي: *«ليس هذا مرضاً وإنما حاجة.»*

حين يُطْلَب تريخيمو ليساعد في الحصاد أو ليذهب إلى المناورات العسكرية، كانت أمه تحزم حقيبته الظهرية بعد أن تملأها بالطعام. تضع بضع زجاجات فارغة للغداء والعشاء، وكحلوى تضع الأنابيب الفلورية وبعض اللمبات المحروقة كوجبة خفيفة.

أخذني تريخيمو إلى منزله في كاميلو ثيينفويخوس، قسم من باراكواو. وبينما كنا نتحدث، كنت أشرب القهوة وهو يأكل اللمبات. حين أنهى الزجاج، بدأ يمص بجشع الأسلاك.

«الزجاج يناديني. أحب الزجاج كما أحب الثورة.»

أكد لي تريخيمو أنه ليس هناك لطخ في ماضيه. لم يأكل مطلقاً أي زجاج تعود ملكيته إلى أي شخص إلا مرة، مرة واحدة، حين كان مجنوناً من الجوع، والتهم نظارة زميله العامل.

تاريخ مدينة هافانا

هرب والداه إلى الشمال. في تلك الأيام، كان هو والثورة في فترة الرضاعة. بعد ربع قرن، سافر نيلسون بالديس من لوس أنجلوس إلى هافانا لكي يزور وطنه.

في كل ظهيرة كان نيلسون يستقل الباص رقم ٦٨، من مدخل الفندق، إلى مكتبة خوسيه مارتي. وهناك كان يقرأ كتباً عن كوبا إلى أن يحل المساء.

في ظهيرة أحد الأيام، فرمل الباص ٦٨ وتوقف عند تقاطع. صدرت صرخات احتجاج بسبب الارتجاج الناجم عن التوقف المفاجئ، إلى أن عرف الركاب لماذا توقف الباص: ذلك أن امرأة فائقة الجمال كانت تعبر الشارع.

قال سائق الباص ٦٨ وهو يخرج: *سامحوني يا سادة*.

صفق جميع الركاب وتمنوا له حظاً جيداً.

سار السائق دون استعجال فيما كان الركاب يراقبونه وهو يقترب من الأنثى الجميلة التي كانت تقف عند زاوية وتستند إلى حائط وهي تلعق قبوع بوظة. من الباص رقم ٦٨ تابع الركاب الحركة السريعة للسانها وهي تقبل البوظة بينما واصل السائق الحديث دون نتيجة واضحة، إلى أن ضحكت ونظرت إليه. أشار السائق بإبهامه وانفجر الركاب في تصفيق حار.

ولكن حين دخل السائق إلى ردهة البوظة بدأ الركاب يشعرون بالقلق. وحين خرج بعد قليل بقطعة بوظة في يده انتشر الذعر بين الجمهور.

زمروا له. أحدهم اتكأ على الزمور بكل قوته وضَجَّ كجرس إنذار، ولكن سائق الباص، الأصم، غير المكترث، كان ملتصقاً بالمرأة اللذيذة.

ثم من مؤخرة الباص رقم ٦٨ خطت امرأة، لها مظهر قذيفة مدفعية كبيرة تتمتّع بهيبةٍ واضحة، إلى الأمام. دون كلمة، جلست في مقعد السائق وشغلت المحرك. تابع الباص رقم ٦٨ طريقه وتوقف في أمكنته المعتادة، إلى أن وصلت المرأة إلى موقفها وغادرت. احتل راكب آخر مكانها، توقف عند كل موقف، ثم حل مكانه شخص بعد آخر، وهكذا تابع الباص طريقه إلى نهاية الخط.

نيلسون بالديس كان آخر من نزل. لقد نسي أن يذهب إلى المكتبة.

الدبلوماسية في أميركا اللاتينية

«ما هذا؟»، تساءل السياح.

كان بالماثيدا يبتسم، يعتذر، ويهز رأسه. ومثل الجميع، كان هناك إكليل من الأزهار حول عنقه ويرتدي قميصاً من هاواي ونظارة شمسية، لكن العلبة الرصاصية التي كان يحملها بيديه جعلته يتعرق كخنزير.

بدا وكأنه ينفذ حكماً بالسجن مدى الحياة. حاول أن يتخلص من العلبة الضخمة في مرحاض فندق، وعلى طاولة التفتيش في مبنى الجمارك في بابييتي. حاول أن يرميها من القارب وأن يضيعها في الجزيرة، الكثيفة الأوراق، في أرخبيل تاهيتي. لكن شخصاً ما كان يركض خلفه دائماً:

«*سيدي! سيدي! لقد نسيت شيئاً.*»

بدأت هذه الحكاية المحزنة حين دعا ماركوس، ديكتاتور الفيليبين، بينوشيه، ديكتاتور تشيلي، إلى زيارة. أرسلت وزارة الشؤون الخارجية التشيلية تمثالاً صدرياً برونزياً للجنرال أوهيغينز من سانتياغو إلى مانيلا. خطط بينوشيه أن يرفع الستارة عن تمثال الشخصية الموقرة في الساحة

الرئيسية للمدينة. لكن ماركوس، الذي خاف من غضب الشعب، ألغى الزيارة بشكل مفاجىء. أجبر بينوشيه على العودة إلى تشيلي دون أن يلمس الأرض. تلقىً بالماثيدا، المسؤول الثانوي، أوامر سريعة في السفارة التشيلية في مانيلا. من سانتياغو قالوا له بوساطة الهاتف:

«أوقف الإجراء المعقد. تخلص من التمثال بأية طريقة. أعده إلى تشيلي ولقد سرحت من عملك.»

تاريخ مدينة كيتو

يسير على رأس مظاهرات الجناح اليساري. غالباً ما يحضر الحفلات الثقافية رغم أنها تضجره، لأنه يعرف أنه سيكون هناك تناول للمشروبات فيما بعد. كان يحب الرم سكاً، لكن ينبغي أن يكون كوبياً.

يطيع إشارات المرور. يطوف في كيتو من طرف إلى آخر، ويزور الأصدقاء والأعداء. على التلال المنحدرة يفضل أن يستقل الباص لكنه لا يدفع الأجرة مطلقاً. يقول له السائقون حين ينزل: *«اللعنة على الأعور.»*

اسمه تشوكو وهو مثير للمتاعب وعاشق. يدخل في عداوة مع أربعة أشخاص حالاً، وحين يصبح القمر بدراً ينزلق بحثاً عن عشيقة. فيما بعد، بعد أن يقوم بكل شيء، يحصي مغامراته الوحشية. ميشي لا تلتقط التفاصيل لكنها تفهم المغزى.

مرة، منذ سنوات، أخذ بعيداً عن كيتو. كان الطعام نادراً وقرروا أن يعيدوه إلى مكان ولادته البعيد. لكنه عاد. عاد بعد شهر. وصل إلى باب منزله وانهار دون قوة ليحتفل بوصوله حتى بهزة من ذيله، أو بأن يعلن عن نفسه بالنباح. عبر العديد من الجبال والجادات ووصل على ساقيه الأخيرتين، محطماً، كيساً من العظام، وفروه ملطخ بالدم الجاف. منذ ذلك الوقت، مقت القبعات، والبزات، والدراجات النارية.

الدولة في أميركا اللاتينية

حدث منذ بضع سنوات، منذ عصور، أن روى لي العقيد أمين هذا.

بدا أن جندياً تلقى الأمر لتغيير الثكنة. أرسلوه بعيداً لمدة عام إلى بعض الثكنات على الحدود، لأن حكومة الأوروغواي بدأت إحدى حروبها الدورية ضد التهريب.

قبل أن يغادر عهد الجندي بزوجته وبعض ممتلكاته إلى وصاية صديقه المقرب.

بعد عام، عاد ليجد أن صديقه المقرب، الذي كان جندياً كذلك، يرفض أن يعيد المرأة. كان النزاع على وشك أن يحسم بالمدية، في مبارزة كريولية، حين أنهاه العقيد أمين.

طلب منهما: «*اشرحا الموقف.*»

قال الرجل الذي كان في مكان بعيد: «المرأة هي امرأتي.»

قال الآخر: «*له؟ يمكن أن تكون له. ولكنها لم تعد كذلك.*»

قال العقيد: «*ما الأسباب؟ أريد أسبابا.*»

وفكر المستغل: «*ولكن يا سيدي العقيد، كيف أرجعها إليه؟ بعد كل معاناة هذه المرأة الفقيرة؟ لو كان بوسعك أن ترى كيف عاملها هذا الحيوان... لقد عاملها، أيها العقيد... وكأنها ملك للدولة.*»

البيروقراطية/1

في أيام الديكتاتورية العسكرية، في منتصف ١٩٧٣، تلقى سجين سياسي من الأوروغواي يدعى خوان خوسيه نويتشيد عقوبة بالسجن لمدة خمسة أيام: خمسة أيام دون أي حق بالزيارة أو التدريب، خمسة أيام بدون أي شيء، وذلك لأنه انتهك القانون. من وجهة نظر النقيب الذي

فرض العقوبة، لم يترك الحكم مجالاً للاعتراض. الحكم يقضي بأن يسير السجناء في صف واحد وأيديهم خلف ظهورهم.

كان نويتشيد بذراع واحدة.

سجن في مرحلتين. أخذت ذراعه في مونتيفيديو. كان نويتشيد يجري هارباً بقدر ما يستطيع من السرعة حين نجح الشرطي الذي كان يطارده في أن يمسك به ويصيح: «*أنت رهن الاعتقال*!» ليجد نفسه يمسك بذراعه. أخذت بقية نويتشيد بعد عام ونصف في بيساندو.

في السجن، طلب نويتشيد إعادة ذراعه.

قالوا له: «*املأ طلباً*.»

قال إنه لا يملك قلم رصاص فأجابوه:

«*املأ طلباً للحصول على قلم رصاص*.»

حصل على قلم رصاص لكن لم يكن لديه ورق.

«*املأ طلباً للحصول على ورق*»، طلبوا منه.

حين حصل في النهاية على قلم وورقة، ملأ طلباً من أجل استرداد ذراعه.

في النهاية لم يحصل على جواب. كلا. لم يكن ذلك ممكناً: كانت ذراعه خاضعة لسلطة أخرى. حوكم في محكمة عسكرية. حوكمت ذراعه كمدني.

البيروقراطية / ٢

نجح تيتو سكالبو بأن يرى وينسخ بعض الوثائق الرسمية في السجن الذي يدعي ليبرتي (الحرية) في فترة الديكتاتورية في الأروغواي. كانت أحكاماً للعقاب. السجناء الذين يرتكبون جريمة رسم الطيور أو الأزواج أو النساء الحوامل، أو الذين يقبض عليهم وهم يستخدمون مناديل مطرزة بالأزهار، يحكم عليهم بالسجن الانفرادي. أحد السجناء، الذي حلق شعره

على الصفر مثل الجميع، عوقب «*لأنه دخل غرفة الطعام دون أن يمشط شعره*».
آخر «*لأنه أدخل رأسه تحت الباب*» - رغم أن ميليمتراً واحداً من الضوء يمكن أن يمر تحت الباب. انتظر السجن الانفرادي كذلك السجين الذي «*حاول أن يصادق كلباً عسكرياً*»، وآخر «*أهان كلباً يعتبر عضواً في القوات المسلحة*». «عوقب آخر بالطريقة نفسها لأنه «*نبح ككلب دون سبب معقول*.»

البيروقراطية/ ٣

أكمل سيكستو مارتينيث خدمته الإلزامية في ثكنة في سيفيّا (إشبيلية).
في وسط ساحة الثكنة مقْعَدٌ صغير يحرسه جندي. لم يعرف أحد لماذا كان ينبغي أن يُحْرَس المقعد. كان المقعد يُحْرَس على مدار الساعة، فقط لأنه: كل نهار، كل مساء، ومن جيل ضباط إلى آخر كان الأمر يصدر والجنود ينفذونه. لم يعبر أحد عن أية شكوك أو يسأل لماذا. إذا كان هذا ما حصل دائماً يجب أن يكون هناك سبب.
وهكذا استمر الأمر إلى أن أراد شخص ما، جنرال أو كولونيل، أن يعرف سبب الأمر الأصلي. كان عليه أن يقلب في الملفات. بعد وقت طويل من البحث، عثر على الجواب. منذ واحد وثلاثين عاماً وشهرين وأربعة أيام، أمر ضابط حارساً أن يقف قرب المقعد، الذي كان قد دهن لتوه، لكي لا يفكر أحد بالجلوس على الدهان الطري.

حوادث/ ١

قرب مواقد بيساندو، كان ميادو إتوريا يروى ما حدث في العالم.
حصلت هذه الحوادث في وقت أو آخر، وربما حدثت أو لم تحدث، ولكن مزيتها هي أنها تحدث في كل مرة تُرْوَى فيها.

هذه هي الحكاية الحزينة للسلور الصغير في جدول نيغرو. كانت له شعرات مدببة وعينان ناتئتان مشطبتان. لم يكن ميادو قد رأى سمكة دميمة كهذه طيلة حياته. تبعه السلور من حافة الجدول ولم يقدر ميادو أن يتخلص منه. في الوقت الذي وصل فيه إلى المنزل والسلور يتعقبه كظله، كيَّف ميادو نفسه.

مع مرور الوقت، بدأ يحب السلور. لم يكن لميادو صديق بدون أرجل مطلقاً. حين يحل الصباح يذهب معه السلور لحلب البقرات وتفتيش الحقول. حين ينتهي النهار يشربان المتة ويصغي السلور لأسرار ميادو العميقة.

نظرت الكلاب، التي شعرت بالغيرة، إلى السلور باستياء، ونظر إليه الطباخون بنيات سيئة. فكر ميادو بتسميته بحيث يستطيع أن ينادي السلور ويجعله يبدي قليلاً من الاحترام، لكنه لم يستطع أن يفكر بأية أسماء للأسماك ولن يسر الله باسم مثل سنفوروسو أو إرمينيغيلدو.

لم يجعل السمكة تغيب عن نظره. كانت له العادة الفضائحية في الدخول في كافة أنواع الإساءة. ولكن كلما كان ميادو لا ينظر، يذهب السلور لإخافة الدجاجات أو لنخس الكلاب.

قال له ميادو: «تصرف بشكل لائق.»

في أحد الصباحات الحارة حين كانت العظاءات في الخارج بمظلاتها والسلور الصغير يهوي نفسه بزعانفه، خطرت لميادو فكرة مأساوية:

اقترح: «لنغطس في الجدول.»

وهكذا ذهبا.

غرق السلور.

حوادث/٢

في الأيام القديمة، زرع دون بيريديكو المنازل والبشر في جميع أنحاء صالونه «المنتجع»، بحيث لا ينتصب وحده. حدث هذا، كما يقولون، في البلدة التي أبدعتها يداه.

قالوا كذلك إن هناك كنزاً، مخبأ في منزل رجل عجوز وضعيف.

مرة كل شهر، كان العجوز، الذي تقترب نهايته، يخرج من السرير ويذهب ليجمع معاشه.

مستغلين غيابه، دخل بعض اللصوص من مونتيفيديو إلى منزله.

بحث اللصوص في كل مكان عن الكنز. وكان كل ما عثروا عليه هو صندوق خشبي مغطى بالشراشف في زاوية من القبو. القفل الضخم الذي كان يجعله آمناً قاوم هجوم محطمي الأقفال دون أن ينهزم.

وهكذا انطلقوا بالصندوق. حين فتحوه بعيداً عن المنزل، وجدوا أنه كان ممتلئاً بالرسائل. كانت رسائل الحب التي تلقاها العجوز في أثناء مجرى حياته.

كان اللصوص على وشك إحراق الرسائل. ناقشوا الأمر. في النهاية قرروا إعادتها. واحدة بعد أخرى. واحدة كل أسبوع. مذاك، كل يوم اثنين ظهراً، كان العجوز يجلس عالياً على الهضبة منتظراً ظهور ساعي البريد. حالما يرى الحصان، الذي يجعله الخرج سميناً، يبزغ من بين الأشجار، يبدأ العجوز بالركض. ساعي البريد، الذي يعرف كل شيء عن الموضوع، يمسك الرسالة بيده.

وحتى القديس بطرس يستطيع أن يسمع نبض ذلك القلب، المجنون من متعة تلقي كلمات امرأة.

حوادث/ ٣

ما الحقيقة؟ الحقيقة كذبة يرويها فرناندو سيلبا.

يروي فرناندو حكايات ليس بالكلمات فحسب، وإنما بجسده كله كذلك. يستطيع أن يحول نفسه إلى شخص آخر أو إلى مخلوق طائر أو إلى أي شيء، ويفعل ذلك بطريقة بحيث أن المرء يسمع فيما بعد، لنقل، طائراً غرّيداً يغرد في شجرة، ويفكر:

«ذلك الطائر يحاكي فرناندو الذي يحاكي طائراً.»

يروي حكايات عن البشر الصغار الجميلين: الناس المخلوقين حديثاً الذين لا تزال رائحة الطين تفوح منهم، وكذلك عن شخصيات جسورة عرفها ـ كصانع المرايا الذي صنع مرايا كان يسير فيها ويضيع، أو مطفئ البركان الذي قلع له الشيطان عيناً بعد أن بصق فيها بدافع الانتقام. تحدث القصص في أمكنة أمَّها فرناندو: الفندق المفتوح للأشباح فحسب، المنزل الذي ماتت فيه الساحرات من الضجر، أو منزل تيكوانتيبي، الذي كان مظلماً وبارداً بحيث يتوق المرء إلى أن تنتظره عشيقة هناك.

بالإضافة إلى ذلك، يعمل فرناندو كطبيب. يفضل الأعشاب على الحبوب، ويعالج القرحات بالكاردوسانتو وبيض الحمام، لكن يفضل يديه على الأعشاب. ذلك أنه يعالج بوضع يديه – وبرواية الحكايات، والتي هي طريقة أخرى لوضع اليدين.

عشية الميلاد

كان فرناندو سيلبا يدير مستشفى الأطفال في ماناغوا. في عشية الميلاد، عمل حتى وقت متأخر من الليل. كانت المفرقعات تنفجر والألعاب النارية تضيء السماء حين قرر فرناندو أن وقت المغادرة قد حان. كانوا ينتظرونه في البيت للاحتفال بالعطلة.

كان يلقي نظرة أخيرة متفحصة حوله لكي يتأكد من أن كل شيء مرتب، حين سمع وقع خطوات. استدار ليجد أحد الأطفال المرضى يسير خلفه. في الضوء الضئيل تعرف على الطفل الوحيد المشؤوم. تعرف فرناندو على ذلك الوجه الذي ترتسم عليه خطوط الموت مسبقاً وتلكما العينين اللتين تطلبان الصفح، أو ربما الأذن.

سار فرناندو نحوه ومنحه الطفل يده.

همس الطفل: «*أخبر شخصاً ما... أخبر شخصاً ما أنني هنا.*»

اللاأحد

البراغيث تحلم بشراء كلب، واللاأحد يحلمون بالنجاة من البؤس: أنه في يوم سحري ما سيمطر الحظ الجيد عليهم فجأة ـ سينهمر بكميات كبيرة. لكن الحظ الجيد لم يمطر البارحة، ولن يمطر اليوم، غداً أو في أي وقت. والحظ جيد لا يتساقط حتى في رذاذ رائع، مهما عانى اللاأحد في استحضاره، حتى ولو كانت أيديهم اليسرى مدغدغة، أو إذا بدأوا يوماً جديداً بأقدامهم اليمنى، أو بدأوا العام الجديد بتغيير المكانس.

اللاأحد: أطفال لا أحد، الذين لا يملكون شيئاً. اللاأحد: الذين ليسوا أحداً، الذين جعلوا هكذا، يركضون كالأرانب، يموتون في الحياة، الثملون بكل طريقة.

الذين ليسوا، ولكن يمكن أن يكونوا.

الذين لا يتحدثون لغات وإنما لهجات.

الذين لا أديان لهم، وإنما خرافات.

الذين لا يبدعون فناً، وإنما صنعة يدوية.

الذين لا يملكون ثقافة وإنما فولكلوراً.

الذين ليسوا كائنات بشرية وإنما مصادر بشرية.

الذين ليس لهم وجوه بل أذرع.

الذين لا أسماء لهم إنما أرقام.

الذين لا يظهرون في تاريخ العالم، بل في دفتر الشرطة، في الصحيفة المحلية.

اللاأحد، الذين ليسوا بقيمة الرصاصة التي تقتلهم.

جوع/١

حين كان يغادر سان سلفادور متوجهاً إلى غواثابـا، قـابل بيرتـا نابـارو فلاحة شردتها الحرب. لم تكن تختلف عن أيـة نسـاء أخريـات أو رجـال آخرين استبدلوا المجاعة بالجوع. ولكن، تلـك الفلاحـة الهزيلـة، الدميمـة كانت تقف وسط الخراب، جلدها يتدلى مرتخياً علـى عظامهـا وثمـة طـائر صغير وهزيل في يدها. كان الطائر ميتاً وكانت تنتف ريشه ببطء شديد.

تاريخ مدينة كاراكاس

«*أريد أحداً يصغي إلي!*» كان يصيح.

«*دائماً يطلبون مني أن أعود غداً!*» صرخ.

رمى قميصه. ثم جرابه وحذاءه.

كان خوسيه مانويل بيريرا يقف على إفريز الطابق الثامن عشـر لبنـاء في كاراكاس.

حاول رجال الشرطة أن يمسكوا به لكنهم فشلوا.

تحدث معه طبيب نفسي من أقرب نافذة.

ثم أحضر له قسيس كلمة الله.

لكن خوسيه مانويل صرخ: «*أنا مريضٌ من الوعود.*»

لا يمكن أن يشاهد من نوافذ المطعم المزينة بالرسوم في الـبرج الجنوبـي، وهو يقف على الإفريز ويـداه مسـطحتان علـى الحـائط. كـان وقـت الغـداء وتحول إلى موضوع للحديث حول جميع الموائد.

على مستوى الشارع تجمع حشد في الأسفل.

مرت ست ساعات.

تعب الحشد أخيراً من الانتظار.

«لماذا لا يحسم الأمر؟» قال البشر.

وفكروا: *«لماذا لا يقفز؟»*

رمى إليه رجال الإطفاء حبلاً. تجاهلـه في البدايـة.لكنـه في النهايـة مـد يداً، ثم مد الأخرى، ثم انزلق وهو متمســك بـالحبل، إلى الطـابق السـادس عشر. ثم، وبينما كان يحاول الدخول من نـافذة مفتوحـة، انزلـق وهبـط في الجو. حين ضرب جسده الرصيف أصدر صوتاً كانفجار قنبلة.

تفـرق الحشـد، وبـائعو البوظـة، وبـائعو الهـوت دوغ، وبــائعو البــيرة والصودا، جميعهم تابعوا طريقهم.

إعلانات

للبيع:

- زنجية نصف مهجنة من سلالة كابيندا، بمبلغ ٤٣٠ بيزوسـا تعـرف مبادئ الخياطة وكيّ الثياب.

- أطباء، وصلوا حديثاً من أوروبا: نوعية أولى. أربعة، خمســة، وسـتة فنتينز للقطعة.

- عربة. ستباع بسعر خمسمئة patacones، أو مقابل زنجية.

- زنجية عمرها ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً، متحررة مـن الرذائـل، من سلالة بانغلا.

- خلاسية صغيرة، في الحادية عشرة، تعرف مبادئ الخياطة.

- عطر سارساباريلا، الزجاجة ببيزوسين.

- مرضعة. تباع دون نسل، لديها حليب كثير وجيد.

- أسد، مروض ككلب، يأكل أي شيء، منضدة وصندوق، مـن خشـب الماهوغاني.

— خادمة، متحررة من الرذائل والمرض، من سلالة الكونغا، تقريباً في الثامنة عشرة، كذلك بيانو وقطع أثاث أخرى، وكلها بأسعار معقولة.

(من صحف الأوروغواي الصادرة في ١٨٤٠، بعد سبعة وعشرين عاماً من إلغاء العبودية).

تاريخ مدينة ريو

وسط ليل مدينة ريو دي جانيرو يقف المسيح الأحدب، مضيئاً وكريماً، بذراعين ممدودتين. وكان أحفاد العبيد يلوذون تحت تلكما الذراعين.

امرأة حافية تنظر إلى المسيح من الأسفل وتقول بحزن كبير وهي تشير إلى الضوء المشع:

«*لن يمكث هناك طويلاً. سمعت أنهم سيأخذونه إلى مكان بعيد.*»

«*لا تقلقي*»، *أكدت لها جارتها.* «*لا تقلقي. سيعود.*»

قتل رجال الشرطة الكثير من البشر، وقتل الاقتصاد المزيد. صدحت أصوات الطبول والطلقات كذلك عبر المدينة العنيفة: الطبول، فاقدة للصبر من أجل العزاء والانتقام، استدعت الآلهة الأفريقية. ذلك أن المسيح لوحده ليس كافياً.

تلك الأرقام القليلة والبشر

من أين يحصل البشر على دخلهم؟ كثيرون يعانون من الفقر والمجاعة يريدون أن يعرفوا.

في بلداننا، الأرقام تعيش بشكل أفضل من البشر. كم من البشر يزدهرون في أوقات الازدهار؟ وكم من البشر يجدون أن حياتهم تطورت بسبب التنمية؟

انتصرت الثورة الكوبية في أثناء عام الوفرة الأعظم في تاريخ الجزيرة.

في أميركا الوسطى، كلما كان البشر أكثر بؤساً ويأساً، تبتسم الإحصائيات وتضحك أكثر. في الخمسينات، والستينات، والسبعينات، العقود العاصفة، الأزمنة المضطربة، تباهت أميركا الوسطى بأعلى نسب للنمو الاقتصادي في العالم وبالتنمية الإقليمية الأكثر شمولاً في تاريخ الحضارة الإنسانية.

في كولومبيا، اختلطت أنهار الدم بأنهار الذهب. أمجاد الاقتصاد، سنوات الأموال الرخيصة: وسط فورة الحماسة، أنتجت البلاد الكوكايين، والبن، والجريمة بكميات جنونية.

جوع/٢

نظام عزلة: ابحث عن رقم واحد. جارك ليس أخاً لك أو حبيباً. جارك منافس، عدو، عائق يجب إزاحته أو شيء يجب استخدامه. لا يغذي النظام الجسد أو القلب: حكم على كثيرين بالتضور جوعاً بسبب غياب الخبز وعلى أكثر منهم بغياب المعانقات.

تاريخ مدينة نيويورك

كان الوقت متأخراً في الليل وكنت في الطرف الجنوبي من مانهاتن، بعيداً عن فندقي. لوحت لتاكسي وقدمت العنوان للسائق بإنكليزية بلا لكنة، وربما أملى هذا عليَّ شبح سلفي الذي من ليفربول. استجاب السائق بإسبانية تامة من غواياكيل.

أدار محرك التاكسي وبدأ يروي لي قصة حياته. وحالما بدأ لم يتوقف. كان يتحدث دون أن ينظر إليَّ وعيناه ملصقتان إلى نهر الأضواء الأمامية وأضواء المكابح على طول الجادة. روى لي عن الأوقات التي سرق فيها وعن

الأوقات التي أرادوا قتله فيها، وعن جنون السير في نيويورك وعن إيقاع الشراء الذي يبعث على الدوار، عن البيع، الاستهلاك، الطرح، أن تشترى، أن تستهلك، أن تطرح، أنه في هذه المدينة يجب أن تستخدم قوة وحشية للدخول في أي مكان ـ ينبغي أن تدوس على شخص آخر أو أن يدوس عليك: سيسير تماما عليك ـ وأنه يعيش هذه الحياة منذ أن كان طفلاً، هل سمعت جيداً، منذ أن كان طفلاً وخرج من الإكوادور ـ وروى لي أن امرأته داست عليه لتوها.

داست عليه زوجته بعد اثني عشر عاماً من الزواج. قال إن هذا لم يكن خطأها. كان ينتهي الموضوع حالما أدخل. لم تستمتع بذلك مطلقاً، قال لي.

قال إن السبب هو البروستات.

الجدران تتكلم/1

في جناح الأطفال في معرض بوغوتا للكتاب:

lunicopter سريعة جداً، مع ذلك بطيئة جداً.

في جادة مونتفيديو قرب مصب النهر:

الرجال المجنحون يفضلون الليل.

وأنت تغادر سانتياغو دي كوبا:

كيف أغطي الجدران التي تتذكرك.

وفي مرتفعات بالبارايسو:

أحبَبْنا أنفسنا.

جنس

مارسنا الجنس ونحن ندور في الفضاء، كرة لذيذة وشهية من اللحم، كرة وحيدة، صغيرة وحارة، تتلألأ ويصعد منها بخار عطور ممتعة وهي

تدور وتدور في حلم هيلينا وعبر الفراغ اللامتناهي، وتسقط فيما هي تدور، وتسقط ببطء إلى قاع إناء كبير من السلطة. وهناك استقرت الكرة الصغيرة، ومن قاع الإناء استطعنا أن نلمح السماء. بجهد كبير، عبر أوراق الخس الكثيفة، أغصان الكرفس وغابة البقدونس، واستطعنا أن نميز بضعة نجوم تبحر في الأنحاء الأبعد للسماء.

علم اللاهوت/1

حين كنت صغيراً جداً، علمتني التعاليم الشفهية أن أقوم بعمل الخير من أجل الفائدة وأن أتجنب عمل الشر خوفاً من العواقب. قدم لي الله عقوبات ومكافآت: هددني بالجحيم ووعدني بالفردوس. ولقد خفت وآمنت.

مر الوقت. وأنا لم أعد أؤمن أو أخاف. وعلى أي حال، يبدو لي أنه إذا كنت أستحق أن أشوى على سفود فوق لسان لهب بطيء وأبدي، فليكن الأمر هكذا. بهذه الطريقة سأنجو من المطهر المليء بسياح مقيتين من الطبقة الوسطى، وفي النهاية، ستطبق العدالة.

بصراحة، وكما يستحق المرء، أنا أستحق هذا. لم أقتل أي شخص مطلقاً، هذا صحيح ولكن بسبب عدم توفر الشجاعة والوقت، وليس بسبب عدم توفر الرغبة. لا أذهب إلى القداس يوم الأحد أو في الأيام الإلزامية. لقد اشتهيت تقريباً جميع جاراتي عدا القبيحات، وهكذا انتهكت، على الأقل في قلبي، الملكية الخاصة التي جعلها الله مقدسة في وصايا موسى: *لا تشتهي زوجة جارك، أو ثوره، أو حماره*... ولكي أتوج كل هذا، ارتكبت بتأمل مسبق، وعن سبق الإصرار والتعمد، فعل الحب بدون القصد النبيل في إعادة إنتاج قوة العمل. وأنا أعي بذكاء أن ذنوب الشهوة لا تحظى باحترام في السماء، ولكنني أشك إن كان الله يلعن ما يجهله.

علم اللاهوت/٢

إن إله المسيحيين، إله طفولتي، لا يمارس الجنس. ربما هو الإله الوحيد الذي لم يمارس الحب مطلقاً من بين جميع الآلهة في جميع الأديان في تاريخ العالم. كلما خطر لي هذا، أشعر بالأسف عليه. ثم أسامحه لأنه كان الأب المطلق الذي يخصيني، رئيس شرطة الكون، وأعتقد أنه حين يقال وينجز كل شيء، عرف الله كذلك كيف يكون صديقي في الأيام القديمة حين آمنت به وصدقت أنه آمن بي. ثم ثقبت أذني في وقت النهار حين امتلأ العالم بحفيف سحري، بين مغيب الشمس وحلول الليل، وبدوت كأنني أسمع أسراره الكئيبة.

علم اللاهوت/٣

جدول الخطأ والصواب: حيث يقول العهد القديم ما يقوله، ربما يجب عليه أن يقول ما اعترف به لي بطله الرئيسي:

مؤسف أن آدم كان غبياً هكذا. مؤسف أن حواء كانت صماء هكذا. مؤسف أنني لم أعرف كيف أجعل نفسي مفهوماً.

كان آدم وحواء أول كائنين بشريين صنعتهما يداي وأعترف أن فيهما عيوباً معينة في بنيتهما، في تركيبهما وإنهائهما. لم يكونا جاهزين للإصغاء، أو للتفكير. وأنا... حسناً ربما لم أكن جاهزاً للكلام. قبل آدم وحواء، لم أتحدث مطلقاً مع أي شخص. لقد لفظت عبارات مهيبة مثل: ليكن هناك ضوء، ولكن دائماً وأنا وحيد. وهكذا في اليوم الذي التقيت به بآدم وحواء في برودة المساء، لم أكن فصيحاً جداً. افتقدت للممارسة.

كان شعوري الأول هو الدهشة. كانا قد سرقا الثمرة لتوهما من الشجرة المحرمة في مركز الجنة. اتخذ آدم تعبير جنرال على وشك أن يسلم سيفه، وكانت حواء تحدق إلى الأرض وكأنها تحصي النمل. ولكن كان كلاهما فتياً

وجميلاً ومتألقاً بشكل لا يصدق. لقد أدهشاني. لقد صنعتهما، ولكنني كنت أجهل أن الطين يبدو مضيئاً هكذا.

فيما بعد، أقر أنني شعرت بالحسد. وتماماً بما أنه لا يأمرني أحد، لم أعرف أي شيء عن كرامة التمرد. ولم أستطع أن أعرف جسارة الحب، التي تتطلب اثنين. حفاظاً على مبدأ السلطة، قاومت رغبة تهنئتهما لأنهما أصبحا فجأة حكيمين في الهوى البشري.

ثم جاء سوء الفهم. فهما كلمة «سقوط» حين قلت كلمة «طيران». اعتقدوا أن الخطيئة إذا كانت أصلية تستحق العقاب. قلت إن أولئك الذي يفشلون في الحب هم مذنبون. حين تحدثت عن مرج حب فهموا أنني أعني وادياً من الدموع. وحين قلت إن الألم هو الملح الذي يمنح النكهة للمغامرة البشرية فهم الغبيّان أنني أحكم عليهما بمنحهما مجد الفناء، فهما كل شيء بالمقلوب وآمنا به.

مؤخراً بدأت أعاني من الأرق. والآن، لعدة ألفيات، أعاني من المشكلات حين أحاول النوم. وأنا أحب النوم، حقاً أحبه، لأنني، حين أنام، أحلم. عندئذ أصبح عاشقاً، أحرق نفسي في اللهب القصير للحب الهارب، وأنا لاعب متجول، صياد في عمق البحر، أو بصار غجري، ألتهم حتى أوراق الشجرة المحرمة وأشرب وأرقص إلى أن أتدحرج على الأرض.

حين أستيقظ أكون وحيداً. ليس هناك أحد كي ألعب معه لأن الملائكة تنظر إلي بشكل جدي، وليس هناك من أشتهيه. محكوم علي أن أشتهي نفسي. أتجول من نجمة إلى أخرى، فيما يزداد ضجري في الكون الفارغ. أشعر بالإرهاق، أشعر بالوحدة الشديدة. أنا وحيد - وحيد طوال الأبدية.

الليل/1

لا أستطيع أن أنام. هناك امرأة عالقة بين جفنيَّ. سأقول لها أن تخرج إن تمكّنْتُ. لكن هناك امرأة عالقة في حنجرتي.

تشخيص و علاج

الحب هو من بين أكثر الأمراض قتلاً ونشراً للعدوى. نحن، المصابين به، يمكن أن يتحقق منا أي شخص. الدوائر الداكنة تحت أعيننا تظهر أننا لا ننام مطلقاً، نبقى مستيقظين ليلة بعد أخرى بسبب المعانقات أو غيابها. نعاني من حمى مهلكة ويعترينا إلحاح لا يقاوم للتفوه بكلمات غبية.

يمكن استقراء الحب بإسقاط قرص حب في كوب من القهوة أو الحساء أو شراب والتظاهر بأن غير مقصود. إن الحب يمكن أن يستنتج لكن لا يمكن منعه. الماء المقدس لا يمنعه ولا خبز القربان المطحون، ولا فائدة إطلاقاً من فص ثوم. الحب أصم تجاه الكلمة المقدسة ورقى الساحرات. ليس هناك مرسوم حكومي يمتلك أية قوة عليه، وليست هناك جرعة دواء، رغم أن النساء في السوق ينادين على أنواع من الشراب مليئة بالضمانات.

الليل/٢

يا امرأة جرديني من ثيابي وشكوكي. عريّني، حرريني من الشك.

نداءات

القمر ينادي البحر والبحر ينادي الجدول المتواضع الذي يتابع التدفق من أي مكان ينبع منه بحثاً عن البحر، مهما كان بعيداً، وينمو وهو يتدفق، يندفع الجدول بحيث لا يستطيع أي جبل أن يقاوم مده. الشمس تنادي الكرمة، التي تنتشر وترتفع جائعة إلى ضوء الشمس. هواء الصباح الباكر ينادي روائح المدينة المستيقظة: رائحة الخبز الطازج، البن الطازج.

الروائح تملأ الجو وتمتلكه. ينادي الليل الزنابق، وفي منتصف الليل نقاط الضوء البيضاء تتفتح في النهر، تفتح الظلمة، تخترقها، تحطمها وتبتلعها.

الليل/٣

أنام على حافة امرأة، على حافة هاوية.

موت صغير

لا يحركنا الحب نحو الضحك في النقطة الأعمق من رحلته، ذروة تحليقه: في أعماقه وأعاليه، ينتزع منا الصرخات والأنين، تعبيرات الألم، مهما كانت مرحة، التي حين تفكر به لا يكون غريباً لأن الولادة متعة مؤلمة. يسمي الفرنسيون ذروة العناق الموت الصغير، الذي يجمعنا فيما يفرقنا، ويعثر علينا فيما يفقدنا، هو بدايتنا كما هو نهايتنا. يسمونه موتاً صغيراً، لكنه ينبغي أن يكون عظيماً، هائلاً، لكي ينجبنا كما يقتلنا.

الليل/٤

أتحرر من العناق، أخرج إلى الشارع.

في السماء المتألقة، القمر فضة رائعة.

عمر القمر ليلتان.

وأنا، عمري ليلة واحدة.

المفترس مُفْتَرَساً

للحبار عينا الصياد الذي يصطاده. الرجل الذي سيبتلعه التراب الذي يغذيه هو نفسه مصنوع من التراب. الطفل يلتهم أمه والأرض تأكل السماء في كل مرة ترضع فيها المطر من صدرها. الزهرة الشرهة تنغلق على منقار الطائر الجائع للعسل. المُنْتَظَر ينتظر كذلك والعاشق فم ولقمة في آن، مُفْتَرِسٌ وَمُفْتَرَس: يأكل العشاق بعضهم بعضاً بشكل كامل، من الرأس إلى القدم، إلى آخر قطعة، جميعهم أقوياء وممتلكون، دون أن يتركوا حتى طرف الأذن أو إصبع القدم الأصغر.

الجدران تتحدث/٢

في بوينس آيرس على جسر لا بوكا:

الجميع يطلقون وعوداً لكن لا أحد ينجزها. لا تصوتوا لأحد.

في كاراكاس، في أثناء الأزمة، على المدخل إلى حي للعمال أكثر فقراً:

أهلاً، بالطبقة الوسطى.

في بوغوتا، على زاوية الجامعة الوطنية:

يعيش الله!

وفي الأسفل، بخط مختلف:

بسبب معجزة.

وكذلك في بوغوتا:

يا عمال العالم اتحدوا!

وتحتها، بخط مختلف:

(*ملاحظة نهائية*).

حياة مهنية/1

في نهاية ١٩٨٧، قالَ هيكتور أباد غوميث إن حياة الإنسان لا تساوي أكثر من ثمانية دولارات. حين نشرت مقالته في صحيفة يومية تصدر في ميديين، كان قد اغتيل مسبقاً. كان هيكتور أباد غوميث رئيساً لمفوضية حقوق الإنسان.

في كولومبيا، من النادر أن يموت المرء من المرض.

«*كيف تحب أن يتم القتل، يا صاحب السيادة؟*»

يتلقى القاتل نصف المبلغ مسبقاً. يذخر المسدس ويرسم علامة الصليب. يصلي لله لكي يساعده في عمله.

فيما بعد، إذا نجح في المهمة، يتلقى النصف الآخر. وفي الكنيسة، راكعاً على ركبتيه، يشكر النعمة الإلهية.

تاريخ مدينة بوغوتا

حين كانت الستارة تسدل كل مساء، تغمض باتريثيا أريثا، المطلوبة للقتل، عينيها وتشكر، بصمت، تصفيق الليل وأنها خدعت الموت يوماً آخر.

كانت باتريثيا على قائمة القتل لأنها تفكر بالأحمر وتعيش بالأحمر، ولقد نفذت الأحكام بعناد واحداً بعد آخر.

أخيراً، أصبحت مشردة. قلق جيرانها من احتمال تفجير المبنى الذي تعيش فيه، طلبوا منها هم الذين يطيعون قانون الخوف، أن تغادر.

سارت في شوارع بوغوتا وهي ترتدي صدرة مضادة للرصاص. كانت الصدرة قبيحة ومزعجة، لكن لم يكن لديها خيار. في أحد الأيام، خاطت عليها باتريثيا بعض النثار المعدني اللماع. في يوم آخر، طرزتها بأزهار

ملونة، بمطر من الأزهار فوق صدرها. وهكـذا، قطعـة بعـد أخـرى، زيّنـتْ الصدرة وجعلتهـا أكـثر إبهاجـاً، وسـواء كـانت تحبهـا أم لا، فقـد كـانت ترتديها أينما ذهبت، حتى على خشبة المسرح.

حين غادرت باتريثيا كولومبيا لتمثل في أوروبـا، قدمـت الصـدرة لفـلاح يدعى خوليو كانون.

خوليو كانون، عمدة بلدة بيستاإرموسا، رأى جميع أفراد أسرته يُقتلـون كتحذير، لكنه رفض أن يرتدي الصدرة المزينة بالأزهار.

قال: «*لا أرتدي ملابس امرأة.*»

بمقص، جردت باتريثيا الصدرة من زينتها ولونها. عندئذ قبلها الرجل.

قتل في تلك الليلة، وهو يرتدي الصدرة.

فن الخطابة

ثمة تقسيم للعمل في صفـوف الأقويـاء: الجيـش، المنظمـات التابعـة لـه والقتلة المأجورون يهتمون بالتناقضات الاجتماعية والصراع الطبقي. المدنيون مسؤولون عن الخطابات.

ثمة عدة مصانع للخطابـات في بوغوتـا رغـم أن واحـداً منهـا فحسـب، مصنـع الخطابـات الوطـني، مسـجل في سـجل الهـاتف. هـذه الطواحــين الصناعيـة زودت عـدة حمـلات رئاسـية في كولومبيـا والبلـدان المجــاورة، وأنتجـت، بانتظـام، خطابـات مفصلـة للاسـتخدام في البرلـمان، خطابـات لتدشين المدارس أو السجون، للزفـاف، أعيـاد الميـلاد، والتعميـد، لإحيـاء ذكرى الشخصيات المرموقة في تـاريخ الأمـة، ولـمدح الموتـى الذيـن يـتركون فراغاً لا يمكن ملؤه:

«*أنا، ربما الأقل كفاءة...*»

حياة مهنية/٢

لهما الاسم نفسه ،والكنية نفسها. يعيشان في المنزل نفسه وينتعلان الأحذية نفسها. ينامان على المخدة نفسها، قرب المرأة نفسها.كل ليلة تتحداهما المرآة بالوجه نفسه. لكن هو وهو ليسا الشخص نفسه:

«*وأنا، ما الذي حصلت عليه لأتخلص منه؟*» يقول هو، متحدثاً عنه ويهز كتفيه.

يقول، أو هو يقول: «*أنا أنفذ الأوامر.*»

«*هذا ما يدفعون لي من أجله.*»

أو هو يقول:

«*إذا لم أفعل ذلك فإن أحداً ما سيفعل.*»

وكأنه يقول:

«*أنا شخص آخر.*»

يدهش حقد الضحية الجلاد، ويتركه يشعر بإحساس ما بالظلم: في النهاية، هو موظف، موظف عادي يذهب إلى العمل في الوقت المحدد ويقوم بعمله. حين ينجز عمل اليوم المنهك، يغسل الجلاد يديه.

أحمد غراب، الذي قاتل من أجل استقلال الجزائر، قال لي هذا. أحمد عذبه موظف فرنسي لمدة شهور. كل يوم، في الساعة السادسة صباحاً، يمسح الجلاد العرق عن جبينه. ينزع منخاس الماشية الكهربائي ويضع جانباً أدوات المهنة الأخرى. ثم يجلس قرب الرجل المعذب ويحدثه عن مشكلاته الأسرية وعن ترفيعه الذي لم يأت وعن غلاء المعيشة. يتحدث الجلاد عن زوجته التي لا تطاق وطفلهما حديث الولادة الذي لم يسمح له بالنوم طوال الليل، شتم مدينة أوران، تلك المدينة الخرائية، وعقيدا ابن قحبة الذي...

أحمد، المستحم بالدم، المرتجف من الألم، المشتعل من الحمى، لا يتفوه بأية كلمة.

حياة مهنية/٣

صرافو العالم الكبار، الذين يمارسون إرهاب النقود، هم أكثر قوة من الملوك والمارشالات، ومن بابا روما نفسه. لا يوسخون أيديهم مطلقاً. لا يقتلون أحداً: يحصرون عملهم في التصفيق للمشهد.

موظفوهم، التكنوقراطيون العالميون، يحكمون بلداننا: ليسوا رؤساء أو وزراء، لم يُنْتَخبوا، لكنهم يقررون مستوى الرواتب والإنفاق العام، الاستثمارات والتعرية، الأسعار، الضرائب، نسبة الفوائد، الإعانات المالية، متى تشرق الشمس، وكيف تمطر غالباً.

على أية حال، لا يشغلون أنفسهم بالسجون أو غرف التعذيب أو مراكز الإبادة، رغم أن هذه الأماكن تؤوي النتائج المحتمة لأعمالهم.

يدّعي التكنوقراطيون أنهم يملكون امتياز اللامسؤولية قائلين: «نحن حياديون.»

ماباموندي/١

النظام:

يسرق بيد ما أقرضه باليد الأخرى.

ضحاياه:

كلما دفعوا المزيد أصبحوا مدينين.

وكلما حصلوا على المزيد يقل ما يملكونه.

وكلما باعوا المزيد، يقل ربحهم.

ماباموندي/٢

في الجنوب، قمعٌ. وفي الشمال، كآبة.

كثيرمن المفكرين الشماليين يتزوجون ثورات جنوبية لمجرد متعة أن يترملوا. يبكون، بتباه، بغزارة، وكلما ماتَ وْهمٌ يذرفون محيطات من الدموع، ولا يتوقفون مطلقاً بما يكفي ليكتشفوا أن الاشتراكية هي الطريق الأطول من الرأسمالية إلى الرأسمالية.

ومن المطابق للزي الحديث في الشمال، وفي جميع أنحاء العالم، الاحتفال بالفن الحيادي والتصفيق للثعبان الذي يلدغ ذيله ويجده طيب المذاق. أصبحت الثقافة والسياسة بضائع للاستهلاك. يتم اختيار الرؤساء على الشاشة كالصابون، ويؤدي الشعراء دوراً تزيينياً. السحر الوحيد هو سحر السوق، والصرافون هم الأبطال الوحيدون.

الديموقراطية هي ترف شمالي يُسْمَح للجنوب بعرضه، لكنه يمنع عن الجميع. وفي التحليل الأخير، لا يزعج أحداً كثيراً أن تكون السياسة ديموقراطية طالما أن الاقتصاد غير ديموقراطي. حين تُسدل الستارة، حالما توضع الأصوات في صناديق الاقتراع، يفرض الواقع قانون أن القوة هي على صواب، والذي هو قانون المال، متعة النظام الطبيعي للأمور. في النصف الجنوبي من العالم، هكذا يعلم النظام، لا ينتمي الجوع والعنف إلى التاريخ وإنما إلى الطبيعة، أما العدالة والحرية فيحكم عليهما بالكراهية المتبادلة.

نسيان/١

أنا أقرأ رواية للمؤلف لويس إيدريك Louise Edrich.

في نقطة ما، يلتقي والد جد مع ابن حفيد. والد الجد خرفٌ بشكل كامل (أفكاره بلون الماء) ويعرض ابتسامة مبهجة كابتسامة ابن حفيده حديث الولادة. والد الجد سعيد لأنه فقد ذاكرته. ابن حفيده سعيد لأنه لم يملك بعد أية ذاكرة. هذه، على ما أعتقد، هي السعادة الكاملة ولا أريد أي جزء منها.

نسيان/٢

الخوف يجفف الفم، يبلل اليدين ويبتر. خوف المعرفة يحكم علينا بالجهل، خوف العمل يجعلنا عاجزين. تفرض الديكتاتورية العسكرية، الخوف من الإصغاء، الخوف من الكلام، وتجعلنا صماً وبكماً. والآن، الديموقراطية، بخوفها من التذكر، تصيبنا بداء فقدان الذاكرة، ولكن لا ينبغي أن تكون سيغموند فرويد لتعرف أنه ليس هناك سجادة تستطيع أن تخبئ قمامة الذاكرة.

الخوف

في صباح ما أهدوا لنا خنزيراً من غينيا. جاء إلى المنزل في قفص. في منتصف النهار، فتحت باب القفص.

عدت إلى البيت مساءً ووجدت أن الخنزير لم يغادر مكانه: كان داخل القفص، متكوراً إزاء القضبان، يرتجف خوفاً من الحرية.

نهر النسيان

في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى غاليسيا، أخذني أصدقائي إلى نهر النسيان. روى لي أصدقائي أنه في الأيام الإمبراطورية القديمة، أراد أعضاء الفيلق الروماني أن يجتاحوا هذه الأراضي لكنهم لم يتجاوزوا هذه النقطة: توقفوا على ضفة هذا النهر مشلولين من الخوف. لم يعبروه بتاتاً، ذلك لأن كل من يعبر نهر النسيان ويصل إلى الجانب الآخر ينسى من هو ومن أين أتى.

كانت تلك بداية منفاي في أسبانيا فكرت: إذا كانت مياه النهـر كافيـة لمحو ذاكرة المرء، ما الذي سيحدث لي، أنا، جـزء حطـام السـفينة، الـذي عبر محيطاً كاملاً؟ لكنني كنـت أسـافر عـبر بلدتـي بونتيبيـدرا وأورينسـي الصغـيرتين، واكتشـفت دسـاكر ومقـاهي تحمـل أسمـاء مثـل الأوروغـواي، فنزويلا، أو بوينس آيرس كيريدو، وبارات أو أريباس، تقدم اللحم المشوي. كانت أعلام فريق بينارول، ناثيونال، وبوكا جونيورز، في جميع الأمكنـة، وكل هذا سببه الغاليسيون الذين عادوا من أميركا ويمارسون الآن نوستالجيا معكوسة. لقد تركوا قراهم، هؤلاء المنفيون مثلي، رغم أن الاقتصاد هو الـذي طردهم وليس رجال الشرطة، وبعد أعوام كثيرة عادوا إلى وطنهـم ولم ينسـوا شيئاً على الإطلاق. ليس حين غـادروا، وليـس حـين كـانوا هنـاك، وليـس حين عادوا: لم ينسوا مطلقاً أي شيء. والآن لديهم ذاكرتان ووطنان.

نسيان/٣

في الجزر الكاريبية الفرنسية، تقدم كتب التاريخ نابليون على أنـه أكـثر محاربي الغرب إثارة للإعجاب.

في هذه الجزر، استعاد نـابليون الاسـترقاق في ١٨٠٢. بالنـار والسـيف، أجبر السود الأحرار على العودة إلى العبودية في المستعمرات الزراعيـة. لكـن النصوص لا تذكر هذا. السود هم أحفاد نابليون، لا ضحاياه.

نسيان/٤

شيكاغو مليئة بالمصانع. هنـاك مصـانع كذلـك حتـى في مركـز المدينـة، حول أكثر الأبنية ارتفاعاً في العالم. شيكاغو مليئة بالمصانع. شيكاغو مليئـة بالعمال.

بعد أن وصلت إلى مقاطعة هي ماركيت، طلبت من أصدقائي أن يأخذوني إلى المكان حيث شنق العمال، الذين يحييهم العالم في بداية كل أيار.

«يجب أن يكون هنا»، قالوا لي. لكن لا أحد يعرف أين.

لم يشيد أي تمثال لتخليد ذكرى شهداء شيكاغو في مدينة شيكاغو. لا تمثال أو مسلة، أو صفيحة برونزية. لا شيء.

إن الأول من أيار هو اليوم الوحيد الحقيقي للبشرية جمعاء، اليوم الوحيد، الذي تتزامن فيه جميع التواريخ والجغرافيات، جميع اللغات والأديان والثقافات في العالم، ولكن، في الولايات المتحدة، الأول من أيار هو يوم كغيره من الأيام. في ذلك اليوم، يعمل البشر بشكل اعتيادي، ولا أحد، تقريباً، يتذكر أن حقوق الطبقة العاملة لم تقفز من أذن عنزة، أو من يد الله أو الرئيس.

بعد استقصائي غير المثمر لمنطقة هي ماركيت، أخذني أصدقائي إلى أضخم مكتبة في المدينة. وهناك، اكتشفت بمحض المصادفة، وأنا أنظر حولي، ملصقاً قديماً بدا وكأنه ينتظرني، وكان ملصقاً بين كثير من الملصقات عن الأفلام وموسيقى الروك. كان الملصق يعرض مثلاً أفريقياً: *إذا لم يحصل السود على مؤرخين، فإن تواريخ الصيد سوف تمجد الصياد.*

احتفاء بالذاتية

أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أؤلف كتاب **ذاكرة النار**، وكلما كنت أكتب يزداد دخولي في القصص التي أرويها. كنت مسبقاً أعاني من مشكلة التمييز بين الماضي والحاضر: ما حدث كان يحدث، يحدث في كل مكان حولي، وكانت الكتابة طريقتي في الاندفاع والعناق. على أي حال، من المفترض ألا تكون كتب التاريخ ذاتية.

ذكرت هذا لسان خوسيه كورونيل أورتيتشو: في هذا الكتاب، الذي أكتبه، وكيفما نظرت إليه، من الخلف أو من الأمام، في الضوء أو عكسه، يمكن أن تشاهد حالات حبي وخصامي من النظرة الأولى.

وعلى ضفة نهر سان خوان، روى لي الشاعر العجوز أنه ليس هناك سبب تافه للانتباه إلى المتعصبين للموضوعية:

قال لي: *«لا تقلق. هكذا يجب أن يكون الأمر. إن أولئك الذي يجعلون الموضوعية ديناً هم كاذبون. إنهم خائفون من الألم الإنساني. لا يريدون أن يكونوا موضوعيين، هذه كذبة: يريدون أن يكونوا أشياء، لكي لا يعانون.»*

احتفاءٌ بزواج القلب والذهن

لماذا يكتب المرء إن لم يكن من أجل أن يجمع القطع مع بعضها بعضاً؟ من لحظة دخولنا إلى المدرسة أو الكنيسة، تفرمنا التربية إلى قطع: تعلمنا أن نفصل الروح عن الجسد، والذهن عن القلب. ينبغي أن يكون صيادو السمك على الساحل الكولومبي فقهاء في الجمال والأخلاق، لأنهم ابتكروا كلمة sentipensati، الشعور – التفكير، ليعرفوا لغة تنطق بالحقيقة.

حالات طلاق

نظامنا هو نظام فصل: لمنع الصامتين من طرح الأسئلة، لمنع المحكومين من الحكم، لمنع المنعزلين من الاجتماع مع بعضهم البعض، والروح عن جمع قطعها.

يفصل النظام الشعور عن التفكير كما يفصل الجنس عن الحب، الحياة الخاصة عن العامة، الماضي عن الحاضر. إذا لم يكن عند الماضي شيء يقوله للحاضر، يمكن أن يتابع التاريخ نومه دون إزعاج في الخزانة التي يضع فيها النظام أقنعته القديمة.

يفرغ النظام ذاكرتنا أو يملؤها بالقمامة، وهكذا يعلمنا أن نكرر التاريخ بدلاً من أن نصنعه. تكرر المأساة نفسها كمسرحية ساخرة، كما النبوءة القديمة أعلنت. ولكن معنا، الأمر أكثر سوءاً: المأساة تتكرر كمأساة.

احتفاء بالتناقضات/١

الذاكرة البلهاء تكرر نفسها كابتهال مأساوي. الذاكرة الحية، من ناحية أخرى، تولد كل يوم، تقفز من الماضي وتتوضع إزاءه. من بين جميع الكلمات في اللغة الألمانية، كانت كلمة aufheben هي المفضلة عند هيغل. وهي تعني أن تحفظ وتمحو، وهكذا تمجد التاريخ البشري، الذي يولد حالما يموت ويبني فيما يهدم.

احتفاء بالتناقضات/٢

أُحَرِّر الأصوات، وأطلق الأحلام. أحاول، بكتابتي، أن أعبر عن الواقعية السحرية، والتي أراها في صلب الواقع المقيت لأميركا.

في هذه البلدان، يحمل الإله إليغوا الموت في قفا عنقه ويحمل الحياة في وجهه. كل وعد وعيد، وكل فقدان اكتشاف. تولد الشجاعة من الخوف، واليقين من الشك. تعلن الأحلام احتمال واقع آخر، ومن الهذيان يبزغ نوع آخر من العقل.

وفي النهاية نحن محصلة جهودنا في أن نغير ما نحن. ليست الهوية قطعة متحفية تتوضع هادئة في صندوق للعرض، وإنما التركيب اللامتناهي الإدهاش لتناقضات الحياة اليومية.

أؤمن بالإيمان الهارب. يبدو لي كأنه الإيمان الوحيد الجدير بالإيمان وذلك بسبب شبهه الكبير بالحيوان البشري، الملعون والمقدس، وبالمغامرة المجنونة التي تعيش في هذا العالم.

تاريخ مدينة مكسيكو

بعد نصف قرن من ظهور سوبرمان في مدينة غوثام، يراقب سوبرباريو شوارع وأسطح مكسيكو سيتي. الرجل الأميركي الشمالي المهيب المصنوع من الفولاذ، الرمز الكوني للقوة، يعيش في مدينة تدعى متروبوليس. سوبرباريو، مكسيكي عادي من لحم ودم، بطل البشر العاديين، يعيش في حي فقير يدعى نيثاوالكويوتل.

له كرش كبير وساقان متقوستان. يرتدي قناعاً أحمر وقبعة صفراء. لا يشن معارك ضد المومياءات، الأشباح أو مصاصي الدماء. في أحد أطراف المدينة، يواجه رجال الشرطة وينقذ بعض المتضورين جوعاً من الطرد، بينما، في طرف آخر، وفي الوقت نفسه، يقود مظاهرة من أجل حقوق النساء أو ضد تسميم الجو. في غضون ذلك، في مركز المدينة، يغزو مجلس الشيوخ ويلقي كلمة تشجب لعب الحكومة الفاسد.

اصطدام الرموز

تحل الرموز تناقضاتها ويتحول السم إلى خبز من خلال سيمياء أو شعوذة الشعب.

في هافانا، وعلى بعد رمية حجر من كاس دي لاس أميركاس، ينتصب تذكار وحيد: فردتا حذاء برونزيتان على منصب كبير.

وهذا الحذاء البرونزي هو لتوماس إستـرادا بالما الذليـل. قلـب الشـعب الغاضب التمثال ولم يترك إلا حذاءه.

عند منعطف القـرن، كـان إسـترادا بالـما رئيـس كوبـا في فـترة احتـلال الولايات المتحدة لها.

مفارقات

إذا كان التناقض رئة التاريخ، يبدو لي أن المفارقة ينبغي أن تكون المـرآة التي يستخدمها التاريخ ليحرك أرجلنا.

لم ينقذ حتى ابن الله نفسه من المفارقة. اختار أن يولد في صحـراء شـبه استوائية حيث لم تسقط الثلوج مطلقاً، مـع ذلـك أصبـح الثلـج رمـزاً كونيـاً لميلاد المسيح منـذ أن قـررت أوروبـا أن يسـوع أوروبـي. ومـن أجـل إضافـة الإهانة إلى INRI فإن ولادة المسيح في هذه الأيام عمل يجلب كميات كبـيرة من النقود للصرافين الذين طردهم المسيح من المعبد.

نابليون بونـابرت، الأكـثر فرنسـية بـين الفرنسـيين، لم يكـن فرنسـياً. وجوزف ستالين، الأكثر روسية بين الروس، لم يكن روسياً، وأدولف هتلر، الأكثر ألمانية بين الألمانيين، ولد في النمسا. مارغريتا سارافاتي، المرأة الـتي أحبها موسوليني، المعادي للسامية، أكثر من غيرها كانت يهودية. خوسيه كارلوس مارياتيغوي، الأكثر ماركسية بين الماركسيين في أميركـا اللاتينيـة، كان يؤمن بالله بحماسة. أعلـن الجيـش الأرجنتيـني أن تشـي غيفـارا غـير *ملائم بشكل كامل للحياة العسكرية*.

من بين يدي نحات يدعى أليخادينهو، الأكثر دمامة بين الـبرازيليين، ولدت أعظم ملكات الجمال البرازيليات. السود الأميركيون الشماليون، أكثر البشر تعرضاً للاضطهاد، أبدعوا الجاز، أكثر أنـواع الموسـيقى تحـرراً. دون كيخوته، أكثر الفرسان ترحلاً، تم تخيّله داخل السجن. وكمفارقة أخـيرة،

لم يتفوه دون كيخوته بعبارته الأكثر شهرة. لم يقل مطلقاً: «*إن الكلاب تنبح يا سانشو، حان وقت السرج.*»

«*تبدو قلقاً*،» قال المصاب بالهستريا. «*أكرهك*،» قال العاشق. «*لن يكون هناك سقوط*»، قال وزير الاقتصاد على حافة السقوط. «*يحترم الجيش الدستور*»، قال وزير الدفاع على حافة الانقلاب.

في حربها ضد الجبهة الساندينية، اتفقت حكومة الولايات المتحدة، بشكل قائم على المفارقة، مع الحزب الشيوعي النيكاراغوي. وحين قيل كل شيء وأنجز، كانت المتاريس الساندينية في أثناء فترة ديكتاتورية سوموزا مفارقَة: المتاريس التي أغلقت الشوارع، فتحت الطريق.

النظام/١

الموظفون لا يعملون.

السياسيون يتحدثون لكنهم لا يقولون شيئاً.

الأصوات تصوت لكنها لا تنتخب.

وسائل الإعلام تشوه المعلومات.

المدارس تعلّم الجهل.

القضاة يعاقبون الضحايا.

الجيش يشن الحرب ضد مواطني بلده.

لا يكافح رجال الشرطة الجريمة لأنهم مشغولون جداً بارتكابها.

الإفلاسات تصبح مجتمعية بينما الأرباح تجعل خاصة.

النقود أكثر حرية من البشر.

البشر هم في خدمة الأشياء.

في مديح الحس العام

في صباح باكر من عام ١٩٨٥ أعلم المستمعون إلى الإذاعة الكولومبية :

«أن مدينة أرميرو محيت عن الخريطة.»

لقد قتلها البركان الذي في الجوار. لم يستطع أحد أن يسبق حادور الطين الذي يغلي. موجة، بحجم السماء، وحارة كالجحيم، اندفعت فوق المدينة، نفثت دخاناً وزمجرت كوحش بري غاضب وبلعت ثلاثين ألف شخص مع المنازل.

أطلق البركان تحذيراته طوال عام. لمدة عام، بصق النار، ولم يقدر على الانتظار فترة أطول، قصف المدينة بالرعود وأمطر رماداً بحيث يمكن أن يسمع الأصم ويرى الأعمى التحذيرات الكثيرة. لكن العمدة قال إن الحكومة الفيدرالية لا ترى سبباً للذعر، وقال الكاهن إن الأسقف قال إن الله يتولى مسؤولية الموضوع، أما الجيولوجيون وعلماء البراكين قالوا إن كل شيء تحت السيطرة وليس هناك خطر.

ماتت مدينة أميرو وتلاشت من الحضارة. لم تكن قد احتفلت بذكراها المئوية. لم يكن لها نشيد وطني أو شعار نبالة.

هنود/١

فيما كنت عائداً من تيموكو، غلبني النعاس على الطريق.

فجأة، أيقظني سحر المشهد الطبيعي. ظهر وادي ريبوكورا وتوهج أمام عيني، وكأن شخصاً ما أزاح ستارة عن عالم آخر.

ولكن هذه الأراضي لم تعد للجميع أو لا أحد كما من قبل. مرسوم من ديكتاتورية بينوشيه سحق الجماعات، وأجبر الهنود على العزلة. مع

ذلك، أصروا على تجميع بؤسهم ولا يزالون يعملـون معـاً، ويصمتـون معـاً، ويتحدثون مع بعضهم بعضاً:

قـالوا لأصدقـائي التشـيليين: «*عـانيتم مـن خمسـة عشـر عامـاً مـن الديكتاتورية، أما نحن فقد عانينا من خمسة قرون منها.*»

جلسنا في دائرة. تجمعنا في مركز طبي لم يـأت إليـه طبيـب، أو عـامل صحي، أو ممرضة، أو أي شيء.

«*يعيش المرء ليموت، وهذه هي المسألة.*» قالت إحدى النساء.

الهنود، المذنبون بعدم قدرتهم على اتباع الملكية الخاصة لا يوجدون.

في تشيلي، لا يوجد هناك هنود: هناك تشـيليون فحسـب، كمـا يقـول ملصق حكومي.

هنود/٢

اللغة كخيانة.

يصيحون بهم: جلادون. في الإكـوادور، الجـلادون يسـمون ضحايـاهم جلادين.

يصيحون: «*جلاد هندي!*»

واحد من بين كل ثلاثة إكوادوريين هو هندي. يجعل الاثنـان الآخـران السابق يدفع مقابل هزيمته التاريخية.

«*نحن المهزومون، لقد ربحوا الحرب. خسرنا لأننا وثقنا بهم. هذه هـي الطريقة،*» قال ميغيل، الذي ولد عميقاً في الغابة الأمازونية.

عوملوا كالسود في أفريقيا الجنوبيـة ولم يسـمح لهـم بدخـول الفنـادق أو المطاعم.

«*يضربونني في المدرسة حين أتحدث بلغتنا،*» قال لوتشو، الذي ولـد في السلسلة الجبلية الجنوبية.

«*منعني أبي من الحديث بالكويتشوا قائلاً: هذا من أجـل مصلحتـك*،»
تذكرت روزا زوجة لوتشو.

يعيش روزا ولوتشو في كيتو. واعتادا سماع: «*هنود خرائيون*.»

الهنود أغبياء – متشردون، سكارى. لكن النظام الذي يحتقرهـم يحتقـر ما يجهله، لأنه يجهل ما يخاف منه. خلف قناع الاحتقـار هنـاك الذعـر. تلك الأصوات العريقة، الحية بعناد: ماذا تقول؟ ماذا تقول حين تتحـدث؟ ما الذي تقوله حين تصمت؟

تقاليد المستقبل

هناك مكان واحـد فحسـب يلتقـي فيـه الأمـس واليـوم، يتعرفـان علـى بعضهما بعضاً، ويتعانقان، وذلك المكان هو المستقبل.

أصوات معينة من المـاضي الأمـيركي، المـاضي البعيـد، تبـدو مسـتقبلية جداً. على سبيل المثال، الصوت القديم الذي لا يزال يقول لنـا إننـا أطفـال الأرض وإن أمنا ليست للبيـع أو التأجـير. وبينمـا تمطـر طيـوراً ميتـة علـى مكسـيكو سـيتي وتتحـول الأنهـار إلى مجـارير، والمحيطـات إلى مقـالب نفايات، والغابات إلى صحاري، هذا الصوت، الـذي يقـاوم المـوت بعنـاد، يبشر بعالم آخر مختلف عن هذا العالم الذي يسمم المـاء، التربـة، الهـواء، والروح.

الصوت القديم الـذي يحدثنـا عـن الجماعـة يبشـر كذلـك بعـالم آخـر. الجماعة – النمط المشاعي للإنتاج والحياة – هـو أقـدم التقـاليد الأميركيـة، الأكثر أميركية مـن كـل شـيء. إنـه نمطٌ ينتمـي إلى الأيـام الأولى والشـعب الأول، لكنه ينتمي كذلك إلى الأزمنة القادمة ويتنبأ بعالم جديـد. ذلـك أنـه ليس هناك شيء أقل أجنبية في هذه الأراضي التي لنا مثل الاشتراكية. مـن ناحية أخرى، الرأسمالية، أجنبيـة: كـالجدري والأنفلونـزا،و جـاءت مـن الخارج.

مملكة الصرصار

حين زرت سيدريك بلفريج في كيرناباكا، كانت لوس أنجلوس تحتوي على ١٦ مليون راكب للسيارة، بشر بعجلات بدلاً من الأرجل، وهكذا لم تشبه كثيراً المدينة التي كان يعرفها سيدريك حين وصل إلى هوليود في أثناء فترة الفيلم الصامت، وكذلك لم تشبه المدينة التي كان سيدريك لا يزال يحبها حين طرده مكارثي في فترة صيد السحرة.

منذ طرده، عاش سيدريك في كيرناباكا. أصدقاء معينون، من الذين بقوا من الأيام القديمة، يظهرون بين فترة وأخرى في منزله الواسع والمضاء، وكذلك بين فترة وأخرى، تأتي فراشة غامضة بيضاء تشرب التيكيلا.

كنت قادماً من لوس أنجلوس وزرت المنطقة التي عاش فيها سيدريك، لكنه لم يسألني عن لوس أنجلوس. لم تهمه لوس أنجلوس، أو تصرف كأنها لا تهمه. بدلاً من ذلك سألني عن وقتي في كندا وتحدثنا عن المطر الحمضي. الغازات السامة التي تطلقها المصانع، والتي تعيدها السحب إلى الأرض، أبادت ١٤٠٠ بحيرة في كندا. لم تعد هناك أية حياة في تلك البحيرات: لم يعد هناك أسماك أو نباتات. ولقد لمحت تلك الكارثة.

نظر إلي العجوز سيدريك بعينيه الكبيرتين الصافيتين وتظاهر بالاحترام لأولئك الذين سيسيطرون على الأرض عاجلاً:

قال: «*نحن البشر تنازلنا عن كوكب الأرض للصراصير.*»

ثم تناول الزجاجة وملأ كأسينا:

«*جرعة أخرى بينما نستمر.*»

هنود/٣

سمعت جان ماري سيمون عن ذلك في غواتيمالا. حدث هذا في نهاية ١٩٨٣، في قرية تابيل، في كويتشي الجنوبية.

كان الجيش يقوم بحملته لإبادة جميع الجماعات المحلية. في أقل من ثلاث سنوات، أزال أربعمائة قرية عن الخريطة. أحرق المحاصيل وقتل الهنود. أحرق المحاصيل إلى جذورها، وقتل الأطفال.

«*سنتركهم دون بذرة يبذرونها*،» قال العقيد هوراثيو مالدونادو شاد.

وهكذا، وصلوا ذات أصيل إلى قرية تابيل. جروا خمسة سجناء من منازلهم، مقيدي الأيدي والأرجل ومضروبين بشكل سيء. كان الخمسة من أبناء القرية حيث عاشوا وتكاثروا، لكن الضباط قالوا إنهم عملاء كوبيون، أعداء للأمة، وأن القرويين يجب أن يقرروا كيف ستتم معاقبة الخمسة وينفذوا الحكم. منحوا أسلحة مذخرة بحيث قرروا إعدام الخمسة رمياً بالرصاص. قال العقيد للقرويين أن لديهم وقتاً حتى ظهر الغد.

اجتمع الهنود لمناقشة المسألة:

«*هؤلاء الرجال أخوة لنا. إنهم أبرياء. إذا لم نقتلهم سيقتلنا الجنود*.»

تحدثوا طوال الليل. وكان السجناء يستلقون وسط الاجتماع ويصغون. جاء الفجر ولم يصلوا إلى نتيجة وشعروا بالحيرة. وهكذا طلبوا مساعدة الآلهة: آلهة المايا وإله المسيحيين. انتظروا الاستجابة عبثاً. لم يقل أي من الآلهة شيئاً. كانوا جميعاً صامتين. في غضون ذلك، كان الجنود ينتظرون في مكان ما في الغابة خارج القرية.

راقب سكان تابيل صعود الشمس نحو سمتها. السجناء الواقفون صمتوا. قبل منتصف النهار بوقت قصير، سمع الجنود صوت الرصاص.

هنود/٤

في جزيرة فانكوفر، روى لنا روث بينيدكت أن الهنود أجروا مباريات لقياس عظمة أمرائهم. كان الخصوم يتنافسون بتدمير ممتلكاتهم. يرمون قواربهم، زيت السمك، بيض السلمون، في النار، ومن على قنة مرتفعة، يقذفون أرديتهم وآنيتهم في البحر.

كل من يتخلص من كل شيء يربح.

ثقافة الإرهاب/١

صنفتهم جمعية باريس لعلم الإناسة كحشرات.

اصطادتهم شركة الأمازون البيروفية كأنهم وحوش. إن العمل العبودي للويتوتو زود السوق العالمية بالمطاط. حين كانت الشركة تقبض على هندي هارب من المزارع، كان يلف براية بيروفية منقوعة بالبنزين ويحرق حياً.

درس (مايكل توسيغ) ثقافة الإرهاب التي بذرتها الحضارة الرأسمالية في الغابة الأمازونية في السنوات الأولى من القرن العشرين. لم يكن التعذيب يستخدم لجمع المعلومات، وإنما كإعادة تأكيد طقسية للسلطة. في طقس طويل ووقور، كانوا يقطعون لسان الهندي ثم يعذبونه ليجبروه على الكلام.

ثقافة الإرهاب/٢

الاغتصاب

الإهانات،

التهديدات،

الصفع،

الضرب،

الجلد،

الغرفة المظلمة،

الحمام الجليدي،

الصيام الإجباري،

التغذية الإجبارية،
حظر مغادرة المنزل،
حظر التفوه بما تفكر به،
حظر القيام بما تشعر به،
والإذلال العلني،
هي بعض أساليب العقاب والتعذيب المألوفة للحياة العائلية. من أجل معاقبة التمرد وتنظيم الحرية، يربي تراث الأسرة ثقافة الإرهاب التي تذل النساء، تعلم الأطفال الكذب، وتنشر طاعون الخوف.

«*ينبغي أن تبدأ حقوق الإنسان في المنزل،*» هذا ما قاله لي أندريه دومنغيث في تشيلي.

ثقافة الإرهاب/٣

الطفل النموذجي:

طفلة صغيرة تلعب بدميتين توبخهما لتبقيا هادئتين. تبدو، هي نفسها، كأنها دمية، جميلة وطيبة ولا تزعج أحداً.

(من كتاب أديلانتي بقلم ج.هـ. فيغويرا، وهو كتاب مدرسي دُرِّسَ في مدارس غواتيمالا حتى وقت متأخر جداً.)

ثقافة الإرهاب/٤

في مدرسة تابعة لأبرشية في إشبيلية، كان طفل في سن التاسعة أو العاشرة يعترف بذنوبه للمرة الأولى. اعترف الطفل أنه سرق حلوى، أو كذب على أمه، أو نقل عن الطفل الذي إلى جانبه، أو ربما اعترف أنه مارس العادة السرية وهو يفكر بابنة عمه. بعد ذلك، ومن ظلمة حجرة

الاعتراف، بزغت يد الكاهن، ملوحة بصليب برونزي. أجبر الكاهن الطفل على تقبيل المسيح المصلوب وضربه على فمه بالصليب قائلاً:

«لقد قتلته، لقد قتلته...»

كان خوليو بيليث هو الطفل الأندلسي الراكع. مرت أعوام كثيرة ولم يقدر مطلقاً على انتزاع تلك الحادثة من ذاكرته.

ثقافة الإرهاب/٥

منحت رامونا كارباو كهدية حين لم تكد تقدر على السير.

في ١٩٥٠، حين كانت لا تزال طفلة، خدمتْ في منزل بمونتيفيديو. قامت بكل شيء مقابل لا شيء.

في أحد الأيام، جاءت جدتها لتزورها. لم تعرفها رامونا أو تتذكرها. جاءت جدتها من الريف، خائفة وغاضبة لأنها يجب أن تعود إلى قريتها على الفور. دخلت، جلدت حفيدتها بشكل مريع، وغادرت.

تركت رامونا تبكي وتنزف.

قالت لها جدتها وهي ترفع السوط:

«أنا لا أجلدك من أجل ما فعَلْتِهِ. أنا أجلدك من أجل ما ستفعلينَه.»

ثقافة الإرهاب/٦

بدرو ألخورتا، المحامي، أطلعني على المعلومات الكثيرة المتعلقة بمقتل امرأتين. ارتكبت الجريمة بسكين في نهاية ١٩٨٢، في ضاحية من ضواحي مونتيفيديو.

المتهمة، ألما دي أغوستو، اعترفت. كانت قد أمضت في السجن أكثر من عام، وكان من الواضح أنها ستتعفن هناك طوال حياتها.

وكما تجري العادة، اغتصبها رجال الشـرطة وعذبوهـا. بعـد شـهر مـن الضرب المتواصل انتزعوا منها عدة اعترافـات. لم تشـبه اعترافـات ألمـا دي أغوستو بعضها كثيراً، وكأنها ارتكبت الجريمة بكثير من الطرق المختلفـة. ظهر بشرٌ مختلفون في كل اعتراف، أشباح دون اسم أو عناوين، وذلـك لأن منخس الماشية الكهربائي يحول أي شخص إلى راو للقصص غزير. بالإضافة إلى ذلك، عرضـت المؤلفـة رشـاقة البطـل الأولمبي، قـوة أمازونيـة محليـة، وبراعة مصارع ثيران. ولكن كان الأكثر إدهاشاً هو ثـروة التفـاصيل: في كـل اعتراف، وصفت المتهمـة بدقـة ميليمتريـة الثيـاب، الإيمـاءات، المحيـط، المواقع، الأشياء...

كانت ألما دي أغوستو عمياء.

جيرانها الذين كانوا يعرفونها ويحبونها، اقتنعوا أنها مذنبة:

«*لماذا؟*» سأل المحامي.

«لأن هذا ما تقوله الأوراق.»

قال المحامي: «*ولكن الأوراق تكذب.*»

قال الجيران: «*ولكن الإذاعة تقول هذا أيضاً. وكذلك التلفزيون.*»

تلفزيون/1

كان تجويفاً للبراغيث في أطراف المدينة، أرخص ما كان في سانتافه وفي كل أنحاء الجمهورية الأرجنتينية: كوخ بائس كان يتداعى إلى قطـع حتـى قبل أن يشيدوه، لكـن فرنـاندو بـيري لم يفـوّت مطلقـاً أيـاً مـن الأفـلام أو الطقوس التي تقدم في ظلمة معبد طفولته المزعوم.

مرة حضر فرناندو، في سينما دوري، حوادث عديدة تتعلق بألغـاز مصر القديمة. كان هناك فرعون، يجلس على عرشه أمام بركة عاكسة. بدا كـأن الفرعون نائم لكنه كان يمرر إصبعه في لحيته. وبينما كان يفعل ذلك، فتـح عينيه وقام بإشارة. عندئذ تفوه الساحر الملكي برقية فهتاجت ميـاه البركـة

واشتعلت فيها النار. حين انطفأت النار وهدأت المياه، انحنى الفرعون فوق البركة، ورأى في المياه الصافية الشفافة كل ما كان يحدث، في تلك اللحظة، في مصر والعالم.

بعد نصف قرن، وهو يتذكر فرعون طفولته، كان فرناندو متأكداً من أمر واحد: كانت تلك البركة السحرية، التي يمكن أن يُرى فيها ما يحدث في مكان بعيد، هي التلفزيون.

تلفزيون/٢

هل يعرض التلفزيون ما يحدث؟

في بلداننا، يعرض التلفزيون ما يحب أن يحدث، ولا شيء يحدث إن لم يُعرض على التلفزيون.

التلفزيون، ذلك الضوء الأخير الذي ينقذك من الوحدة والليل، هو الواقع. لأن الحياة عرضٌ، يعد النظام أولئك الذين يصبحون مهذبين بمقعد مريح.

ثقافة الصورة

بعيداً عن الشاشة، العالم ظل غير جدير بالثقة. أمام التلفزيون، أمام السينما، كان العالم مسبقاً هكذا. حين قبض بوفالو بل على هندي ونجح في قتله، بدأ فوراً بسلخ جلدة رأسه المشعرة، نزع ريشه، وغنائم أخرى، وفي عدوة واحدة وصل من الغرب المتوحش إلى مسارح نيويورك، حيث كرر العمل البطولي الذي أداه لتوه. ثم، بينما ترفع الستارة ويرفع بوفالو بيل مديته الملطخة بالدم على المسرح، يحدث الواقع، للمرة الأولى، هناك في أضواء مقدم خشبة المسرح؟

تلفزيون/٣

يقذف التلفزيون الصور التي تعيد إنتاج النظام والصوت الذي يردد صداه، وليست هناك بقعة على الأرض لا يصل إليها. إن الكوكب برمته ضاحية ضخمة لـ «دالاس». نأكل عواطف مستوردة وكأنها سجق معلّب بينما أطفال التلفزيون الصغار، المدربون على مشاهدة الحياة بدلاً من صناعتها، يهزون أكتافهم.

في أميركا اللاتينية، تتألف حرية التعبير من حق الاحتجاج على بعض الإذاعات والصحف المحلية. أصبح من غير الضروري لرجال الشرطة أن يحظروا الكتب: ذلك أن أسعارها كافية لمنعها.

كرامة الفن

أكتب لأولئك الذين لا يستطيعون القراءة، للمداسين الذين ينتظرون في صف، طوال قرون، ليدخلوا إلى التاريخ، للذين لا يستطيعون قراءة كتاب أو شراءه.

حين بدأت أفقد شجاعتي، كان من الجيد أن أذكر درساً في كرامة الفن تعلمته منذ سنوات في مسرح في أسيسي، بإيطاليا. ذهبت أنا وهيلينا لحضور مسرحية إيمائية ولم يحضر أحد آخر. كنت أنا وهي المشاهدين الوحيدين. حين خفتت الأضواء، انضم إلينا الدليل وبائع التذاكر. ورغم حقيقة أنه كان هناك على خشبة المسرح أشخاص أكثر من الجمهور، عمل الممثلون بجد وكأنهم ينعمون بمجد مسرح مكتظ في ليلة الافتتاح. وضعوا قلوبهم وأرواحهم في الأداء وكان ذلك مدهشاً.

هز تصفيقنا القاعة الفارغة. صفقنا إلى أن آلمتنا أيدينا.

تلفزيون/٤

روت لي هذه الحادثة روزا ماريا ماتيو، إحدى أكثر المغنيات التلفزيونيات شعبية في إسبانيا. كتبت لها امرأة رسالة من قرية بعيدة وطلبت منها أن تقول لها الحقيقة:

«حين أنظر إليك، هل تنظرين إلي؟»

روت لي ماريا هذا وقالت إنها لم تعرف كيف ترد.

تلفزيون/٥

في الصيف، يقدم تلفزيون الأوروغواي برامج طويلة عن بونتا ديل إستي. الكاميرات المهتمة بالأشياء أكثر من البشر، تنتشي وهي تعرض منازل الأغنياء الذين يقضون العطلة. وهذه المنازل الفارهة تشبه أضرحة مقبرة لا ريكوليتا، بونتا ديل إستي.

على الشاشة تظهر النخبة ورموزها السلطوية. والنظام، الذي يبني الهرم الاجتماعي من القمة إلى القاعدة، يكافئ قلة من البشر. وهنا الفائزون بالجائزة: المرابون المدرّمو الأظافر، تجار الأسنان المرتفعة الثمن، سياسيون بأنوف كبيرة وأطباء بأعمدة فقرية من المطاط.

يعبد التلفزيون أولئك الذين يحكمون في حوض نهر الفضة، لكنه يؤدي وظيفة تعليمية نموذجية دون أن ينوي القيام بذلك: يأخذنا إلى القمم الاجتماعية ويكشف الفراغ والذوق السيء لصيادي النقود المنتصرين.

وتحت الغباء الظاهري هناك غباء حقيقي.

احتفاء بفقدان الثقة

في اليوم الأول من الدروس، أحضر الأستاذ دورقاً ضخماً.

قال لميغيل بيرن وبقية الطلاب: «*إنه مليء بالعطر. أريد أن أعرف مدى إدراك كل منكم. ارفعوا أيديكم حالما تشمون العطر.*»

أزال السدادة. بعد لحظات ارتفعت يدان في الجو. وحالاً خمس وعشر وثلاثون – رفعت جميع الأيدي. طلبت شابة دائخة من العطر القوي: «*هل يمكن أن أفتح النافذة يا أستاذ؟*» رددت عدة أصوات طلبها. الجو، الكثيف برائحة العطر، أصبح، بسرعة، لا يطاق، بالنسبة إلى الجميع.

ثم طلب الأستاذ من الطلاب أن يفحصوا الدورق، واحداً بعد آخر. كان مليئاً بالماء.

ثقافة الإرهاب/7

الاستعمار الواضح يبترك دون تنكر: يمنعك من الكلام، ومن الفعل، أو يمنعك من الوجود. أما الاستعمار اللامرئي، على أي حال، يقنعك أن القنانة هي قدرك والعجز طبيعتك: يقنعك أنه ليس من الممكن الكلام، وليس من الممكن الفعل، وليس من الممكن الوجود.

استلاب

في أيام طيشي، كنت موظفاً في البنك. ومن بين الزبائن أتذكر صانعاً للقمصان. كان مدير البنك يجدد ديونه وذلك بسبب الشفقة فحسب. كان صانع القمصان الفقير دائماً على حافة الإفلاس. لم تكن قمصانه سيئة، لكن لا يشتريها أحد.

في إحدى الليالي، زار ملاكٌ صانعَ القمصان. حين استيقظ في ذلك الصباح كان قد رأى الضوء. قفز من سريره.

كان أول ما فعله هو تغيير اسم مشروعه إلى أوروغواي سوثيبداد أنونيما، وهو اسم وطني حروفه الأولى هي U.S.A. والشيء الثاني الذي قام به هو أنه خاط لصقات على ياقات قمصانه تقول، بصدق تام، صنع في U.S.A. والأمر الثالث الذي قام به هو أنه باعِ القمصان كالكعك الساخن. والأمر الرابع هو أنه دفع ديونه وجنى أطناناً من النقود.

استلاب/٢

أولئك الذين في السلطة يعتقدون أن الأفضل هو من ينسخ بشكل أفضل. تمجد الثقافة الرسمية فضائل القرد والببغاء.

الاستلاب في أميركا اللاتينية: عرضُ سيرك. الاستيراد، الفرض: مدننا مليئة بأقواس النصر، المسلات والباراثينونات. ليس لبوليفيا بحر، لكن لديها أميرالات معدون مثل اللورد نيلسون. لا يسقط مطر في ليما، لكن لها أسطح مليئة بالميازيب. في ماناغوا، إحدى أكثر المدن حرارة في العالم، المحكوم عليها بغليان أبدي، هناك منازل فيها مواقد رائعة، وفي حفلات سوموزا، ترتدي سيدات المجتمع فساتين من الفضة.

استلاب/٣

يكتب ألاستير ريد لمجلة نيويوركر لكنه نادراً ما يذهب إلى نيويورك. يفضل العيش على ساحل بعيد في جمهورية الدومينيكان. نزل كريستوفر كولمبوس على هذا الشاطئ منذ عدة قرون في إحدى رحلاته إلى اليابان، ولم يتغير أي شيء منذ ذلك الوقت.

بين فينة وأخرى، يظهر ساعي البريد بين الأشجار. يصل متعثراً تحت حمله. يتلقى ألاستير جبالاً من المراسلات. من الولايات المتحدة، يقصف بعروض تجارية، نشرات، كاتالوجات، إغراءات مترفة من حضارة المستهلك تحثه على الشراء.

في إحدى المناسبات، عثر في كومة الورق عن إعلان حول آلة تجذيف. أطلع ألاستير جيرانه الصيادين عليه.

«*داخل المنزل؟ يستخدمونها داخل المنزل؟*»

لم يستطع الصيادون تصديق ذلك.

«*دون ماء؟ يجذفون دون ماء؟*»

لم يصدقوا، أو يفهموا الأمر.

«*ودون سمك؟ ودون شمس؟ ودون سماء؟*»

أخبر الصيادون ألاستير أنهم ينهضون كل ليلة قبل الفجر بوقت طويل ويخرجون إلى البحر، يرمون شباكهم حين ترتفع الشمس فوق الأفق، وهكذا كانت حياتهم، وهذه الحياة تسرهم، لكن ذلك التجذيف هو المظهر الجحيمي من العمل كله.

قال الصيادون: «*إن التجذيف هو الشيء الوحيد الذي نكرهه.*»

ثم شرح لهم ألاستير أن آلة التجذيف هي للتمرين.

«*من أجل ماذا؟*»

«*التمرين.*»

«*آه. والتمرين – ما هذا؟*»

الجدران تتحدث/٣

في مونتيفيديو، في حارة براثو أورينتال:

هنا نجلس، نراقبهم يقتلون أحلامنا.

وعلى حائل الأمواج الذي يواجه ميناء بوثيو بمونتيفيديو:
أيها العجوز الأخرق: *لا تستطيع أن تعيش حياتك كلها في الخوف.*
بأحرف حمراء على طول فرسخ كامل في جادة كولون في كيتو:
ماذا لو توحدنا ورفسنا تلك الفقاعة الشائبة الكبيرة.

أسماء/١

البشر، المخلوقات والأشياء انطلقت إلى منزل الأسماء لتبحث عن اسم لها. جلجلت الأسماء وهي تقدم نفسها: وعدت أن تنطق بشكل جميل وأن يكون لها أصداء ترن. كان المنزل يغص دوماً بالبشر، والحيوانات، والأشياء التي تجرب الأسماء. حلمت هيلينا بمنزل الأسماء واكتشفت هناك الكلبة بيبا لومبين، التي كانت تبحث عن اسم أكثر ملائمة.

أسماء/٢

روى لي أرتورو ألابي أن مانويل مارولاندا بيليث لم يكن الاسم الحقيقي لرجل العصابات الكولومبي المشهور. منذ أربعين عاماً، حين أصبح متمرداً، كان اسمه بدرو أنطونيو مارين. في تلك الأيام، كان مارولاندا شخصاً آخر، أسود الجلد، ضخماً، يمتهن البناء، ويسارياً في طريقته بالتفكير. حين ضرب رجال الشرطة مارولاندا حتى الموت، اجتمع رفاقه وقرروا عدم السماح بموت مارولاندا. وبالإجماع منحوا الاسم لمارين، الذي استخدمه منذ ذلك الوقت.

المكسيكي، بانتشو بيا، استعار كذلك اسم صديق قتله رجال الشرطة.

أسماء/٣

منذ أن بدأت الكتابة، كنت أوقع باسم كاليانو، والذي هو كنيتي من ناحية أمي. حصل هذا حين كنت في التاسعة عشرة، أو ربما منذ بضعة أيام، ذلك أن تسمية نفسي كانت طريقة للولادة من جديد.

سابقاً، حين كنت طفلاً وأنشر رسومات، كنت أوقعها باسم جيوس، لأن اسمي، من ناحية أبي، كان صعب اللفظ في الإسبانية. (حصلت على اسم هيوز من والد جدي الويلزي، الذي عمل في البحر في سن الخامسة عشرة وانطلق إلى الكاريبي، سانتو دومنغو، وفيما بعد إلى ريو دي جانيرو، وأخيراً إلى مونتيفيديو. هناك رمى خاتم البناء في نهر ميغيليتي ووضع أول سياج شائك في حقول بيساندو، جاعلاً نفسه مالكاً للأرض والناس. مات منذ نصف قرن بينما كان يترجم مارتين فييرو إلى الإسبانية).

مع مرور الأعوام، سمعت آراء متضاربة عن عمل اسمي المختار. والرأي الذي يسيء للذكاء أكثر من غيره يُعزي إليّ نوايا مضادة للإمبريالية. والرأي الأكثر هزلاً يضيف دوافع للتآمر أو التهريب. والنسخة الأسوأ تجعلني الخروف الأحمر في عائلتي: تبتكر لي أباً عدوانياً وأوليغاركياً بدلاً من والدي الحقيقي، الشخص الخرافي الذي كسب دائماً معيشته بعرق جبينه أو من حظه الجيد في رهانات كرة القدم.

غيّر الرسام الياباني هوكوساي اسمه ستين مرة، لكي يحتفل بجميع أعياد ميلاده. في الأوروغواي، البلد الشكلاني، سيسجنونه كمجنون أو ملفق خؤون للهويات المزيفة.

عودة إلى المستقبل

في بداية القرن العشرين، كانت الأوروغواي بلداً من القرن الواحد والعشرين. الآن، في نهاية القرن العشرين، تنتمي الأوروغواي إلى القرن التاسع عشر.

في أرض الضجر، يمنع الإتكيت كل ما لا يفرضه الروتين. يحلم الرجال بالتقاعد، والنساء بالزواج. الشبان المذنبون بجريمة الشباب، يحكم عليهم بالسجن الانفرادي أو ينفون إلى أن يبرهنوا أنهم عجائز.

أيام دائخة

يتغذى يقيني على الشكوك. وثمة أيام أشعر فيها كأنني غريب في مونتيفيديو أو في أي مكان آخر. في تلك الأيام، التي بلا شمس، وفي الليالي التي بلا قمر، لا أنتمي إلى أي مكان ولا أتعرف على نفسي في أي شيء أو أي شخص. لا تشبه الكلمات ما تشير إليه ولا تتواشج مع أصواتها. عندئذ لا أكون حيث أكون. أغادر جسدي وأسافر بعيداً، لا أتجه إلى مكان محدد، ولا أرغب في أن أكون مع أحد، حتى مع نفسي، ولا يكون لي اسم أو رغبة باسم: عندئذ أفقد رغبتي في أنادي نفسي أو يناديني أحد.

حين ينفد الحظ

في فترات الحظ السيىء أفقد نفسي. تسقط الأشياء من جيوبي وذاكرتي: أضيع المفاتيح، الأقلام، النقود، الوثائق، الأسماء، الوجوه، الكلمات. ولا أعرف إن كان شخص ما يتمنى لي الأذى أو أصابني بالعين، أو أن الأمر تم بالمصادفة، ولكن أحياناً لا ينتهي هذا الوضع وأضيع الأشياء كلها. أضيع ما أعثر عليه، لا أستطيع العثور على ما أجده، وأخاف أن أفقد الحياة من خلال ثقب صغير في جيبي.

أونيتي

لم أكن قد وصلت إلى سن العشرين وكنت لا أزال ألعب لعبة الغميضة في ليالي العالم.

أردت أن أرسم لكنني لم أستطع. أردت أن أكتب ولم أعرف كيف. بين وقت وآخر، كنت أكتب قصة ما، وآخذها إلى خوان كارلوس أونيتي.

كان يستلقي في السرير دائماً، بسبب الكسل، والحزن، محاطاً بأهرامات من أعقاب السجائر، خلف جدار من الزجاجات الفارغة. شعرت بأنني مضطر للتفوه بعبارات خارقة الذكاء. حدق المايسترو أونيتي إلى السقف ولم يفتح فمه إلا لكي يتثاءب، ويدخن ويشرب – نعاس بليد، نفخ بليد، شرب بليد – وربما يغمغم خاتمة ما يصل إليها بعد تأمل طويل في المشهد المحلي والعالمي.

قال: «*اللعنة على اليوم الذي تعلم فيه العسكر والنساء القراءة.*»

جالساً إلى جانبه، كنت أنتظره لكي يقول لي إن قصصي هي بلا شك نتاج عبقرية، لكنه لا يقول شيئاً، وأخيراً يغمغم كلمات تشجيع مثل:

«*انظر، أيها الولد. لو ولد بيتهوفن في تاكيوأرمبو، سينتهي وهو يدير الفرقة المحلية.*»

أرغيداس

كنت في طريق عودتي إلى مونتيفيديو في نهاية رحلة. لا أذكر من أين كنت قادماً، ولكنني أذكر أنني قرأت في الطائرة ثعلب الأعالي وثعلب المنخفضات، رواية خوسيه ماريا أرغيداس الأخيرة. بدأ أرغيداس كتابة وداعه للحياة في اليوم الذي قرر أن يقتل نفسه، وكانت الرواية شهادته الطويلة اليائسة. قرأت الكتاب وصدقته: من الصفحة الأولى، صدقته. ورغم أنني لم ألتق بالرجل مطلقاً، صدقته وكأنه صديق قديم.

في رواية الثعلب، خصص أرغيداس لأونيتي المديح الأعلى الذي يخص به كاتباً كاتباً آخر: لقد كتب أنه على الرغم من وجوده في سانتياغو دي تشيلي، فقد كان يتمنى أن يكون في مونتيفيديو، *لكي يلتقي بأونيتي ويصافح اليد التي يكتب بها*.

في منزل أونيتي، ذكرت ذلك. لم يكن يعرف. الرواية، التي صدرتْ حديثاً، لم تصل إلى مونتيفيديو بعد. ذكرت ذلك لأونيتي لكنه لم يتفوه بكلمة. وقبل برهة انتحر أرغيداس بالرصاص.

مر وقت طويل – دقائق أو أعوام – فيما كنا نجلس بصمت. ثم قلت شيئاً، سألت شيئاً، ولم يستجب أونيتي. نظرت إلى الأعلى ورأيت الدموع تجري على وجهه.

احتفاء بالصمت/1

مرت سنوات منذ أن رأيت فرناندو رودريغز. رياح المنفى، التي تفصل كثيراً، جمعتنا سوية. وجدته، كالعادة، رث الملابس وكثير التشكي والتظلم.

«*لم تتغير ذرة واحدة*،» قلت له.

قال لي إنه لم يبق له إلا بضعة أعوام.

«*يجب ألا يعيش المرء بعد سن السبعين. يمكن أن يصبح المرء مدمناً على الحياة*.»

في تلك الليلة تجولنا دونما هدف، بين البحر وسكة القطار في كاييا دي لا كوستا. سرنا ببطء، كلانا صامت، وحول الزاوية من المحطة جلسنا لنحتسي القهوة. ثم قال فرناندو شيئاً عن الزنزانة التي زج فيها العسكر راؤول سينديك، التوبامارو، وسوية استرجعنا ذكريات عن راؤول وطريقته في الحياة. سألني فرناندو:

«*هل قرأت ما قالته الصحف حين اعتقلوه؟*»

«*نعم، قرأت*،» قلت له.

«آه. *هل صدقتها*؟»

«كلا.»

قال فرناندو: «لم أصدق أنا كذلك، أن ذلك الشخص سيستسلم بهدوء.»

احتفاء بالصمت/٢

المغني براوليو لوبيث، نصف الثنائي لوس أوليمارينوس، وصل إلى برشلونة كمنفي. كانت إحدى يديه مكسورة.

كان براوليو مسجوناً في سجن بيا دوبوتو لامتلاكه ثلاثة كتب: سيرة خوسيه أرتيغاس، بعض القصائد لأنطونيو ماتشادو، وكتاب سانت أكزوبيري الأمير الصغير. حين كانوا على وشك إطلاق سراحه، جاء سجان إلى زنزانته وصاح: «أنت يا عازف الغيتار؟» ثم داس على يد براوليو اليسرى ببوطه.

اقترحت أن أجري معه حواراً. ذلك أن القصة يمكن أن تهم مجلة تريونفو Triunfo. لكن براوليو حك رأسه، فكر للحظة، ثم قال: *كلا*.

وشرح ذلك لي:

«*ستشفى يدي، عاجلاً أم آجلاً. ثم سأعزف وأغني من جديد. أتفهم؟ لا أريد أن أشك بالتصفيق.*»

احتفاء بالصوت البشري/٤

مانفريد ماكس – نيف، الذي عاش في الأوروغواي أكثر من عشرين عاماً، روى لي ما يذكره أكثر من غيره: «*نبحت الكلاب وهي تجلس أما البشر فقد صمتوا.*»

ثم أعادت الديكتاتورية العسكرية النظام، وأجبرت سكان الأوروغواي على الكذب أو الصمت. لا أعرف حينها إن وقفت الكلاب لتنبح، ولكن أن تحفظ كلمتك يعني ألا تحفظ شيئاً على الإطلاق.

النظام/٢

إنه عصر الحرباء: لا أحد علّم الإنسانية بقدر ما علمتها تلك المخلوقة المتواضعة.

الأخصائيون في فن الإخفاء يحترمون جداً، وتُبجَّل ثقافة القناع. نتحدث اللغة المزدوجة لفن المحاكاة السيد. اللغة المزدوجة، الحساب المزدوج، الأخلاق المزدوجة: أخلاق للكلام، وأخلاق للفعل. أخلاق الفعل تدعى الواقع.

قانون الواقع هو قانون السلطة. وهكذا ينبغي ألا يبدو الواقع غير واقعي، وأولئك المسؤولون يقولون لنا إن الأخلاق يجب أن تكون غير أخلاقية.

احتفاء بزواج الكلمة والفعل

قرأت مقالة لكاتب مسرحي هو أركادي ريكن، نشرت في مجلة موسكوفية. قال الكاتب إن البيروقراطية ترى أن الفعل، والكلمات، والأفكار، لا تلتقي مطلقاً. يبقى الفعل في مكان العمل، الكلمات في الاجتماعات، والأفكار على المخدة.

جزء معتبر من قوة تشي غيفارا، على ما أعتقد، تلك الطاقة الغامضة التي تتجاوز موته وأخطاءه، جاء من حقيقة بسيطة جداً: كان نوعاً نادراً من الأشخاص الذين يقولون ما يفكرون به وينفذون ما يقولونه.

النظام/٣

إذا لم تكن سريعاً ستموت. يجب أن تكون المفسد أو الفاسد، الكاذب أو هدف الكذب. هذه أوقات ما أحرص عليه، ماذا بوسعك أن تفعل حياله، لا تتدخل، ابحث عن رقم واحد. زمن المخادعين: لا يقدم الإنتاج شيئاً، لا معنى للإبداع، لا قيمة للعمل.

في حوض نهر الفضة، نسمي القلب بوبو، مغفلاً. وليس لأنه يعشق: ندعوه مغفلاً لأنه يعمل.

في مديح المبادرة الخاصة

يسوع يراقبكم. أينما تذهبون تتبعكم عيناه. تساعد التكنولوجيا الحديثة ابن الله في أن يؤدي عمله كشرطي كوني. ثلاثة أغطية من البلاستيك المستقطب، التي تسد، بنجاح، مرور الضوء، تساعده في هذه المهمة.

في ١٩٦١ أو ١٩٦٢، شدت إحدى تلك الصور ذات الأعين المتحركة الأعين انتباه صحفي. كان خوليو تاكوبيلا يسير في شارع في بوينس آيرس حين شعر أنه مراقب. من نافذة مخزن، نقل يسوع عينيه إلى خوليو. خطا خوليو إلى الوراء وتبعته العينان. وقف ثابتاً وبقيت العينان تنظران إليه. سار إلى الأمام فتبعته العينان كذلك.

غيرت العلامة المقدسة حياته وأخرجته من البؤس.

بعد ذلك حالاً، طار تاكوبيلا إلى بورت أو برينس، ومن خلال السفارة الأرجنتينية في هاييتي رتب مقابلة رسمية مع الرئيس مدى الحياة، «بابا دوك دوفالييه.»

تحت ذراعه كانت هناك صورة كبيرة.

قال: «أريد أن أريك شيئاً يا صاحب السعادة.»

كانت صورة للديكتاتور بعينين متحركتين.

شرح تاكوبيلا: «بابا دوك يراقبكم.»

هز بابا دوك رأسه.

قال وهو يروح ويغدو أمام الصورة: «ليست سيئة. كم تستطيع أن تصنع منها؟»

«كم تدفع؟»

«ما تكلفه.»

وهكذا امتلأت هاييتي بأعين يقظة وامتلأت جيوب الصحفي بالنقود.

الجريمة المتقنة

هذه هي الطريقة التي تعمل بها الأمور في لندن: أجهزة التدفئة تقدم الحرارة مقابل النقود التي تتلقاها. وفي منتصف الشتاء، كان عدد من منفيي أميركا اللاتينية يرتجفون من البرد، لا يملكون قطعة نقدية واحدة من أجل جهاز التدفئة في شقتهم.

نظروا دون أن يرف لهم جفن إلى جهاز التدفئة. بدوا كأنهم مؤمنون يعبدون طوطماً، لكنهم كانوا بحارة فقراء محطمين يفكرون كيف ينهون الإمبراطورية البريطانية. إذا وضعوا قطعاً نقدية من القصدير أو الكرتون، سيعمل الجهاز، ولكن الحصالة ستحتوي على دليل على جريمتهم.

ما العمل؟ سألوا أنفسهم. كانوا يرتجفون من البرد وكأنهم مصابون بالملاريا. فجأة أطلق أحدهم صرخة وحشية هزّت أسس الحضارة الغربية. وهكذا ولدت قطعة النقد الجليدية، التي ابتكرها رجل فقير متجمد.

شرعوا في العمل حالاً. صنعوا قوالب شمعية أعادت، بدقة، إنتاج القطع النقدية البريطانية ووضعوها في الثلاجة.

لم تترك النقود الجليدية أثراً لأن الحرارة تبخرها.

وهكذا، تحولت شقة لندن إلى شاطئ كاريبي.

المنفى

رفضت الديكتاتورية العسكرية منحي جواز سفر، كما فعلت مع كثيرين من الأوروغواي، وحكم علي مـدى الحيـاة أن أفـك شـيفرة شـريط كاسـيت أحمر في قسم الأجانب التابع لمركز شرطة برشلونة.

المهنة؟ كاتب أشكال، كتبت.

في أحد الأيام، لم أعد أستطيع التحمل. كنت مريضاً ومتعباً من الانتظار في الصف ساعات في الشارع ومغتاظاً من البيروقراطيين الذين لم أعد أتحمـل رؤيتهم.

«هذا الشكل ليس جيداً.»

«حصلت عليه هنا.»

«متى.»

«الأسبوع الماضي.»

«يوجد أشكال جديدة الآن.»

«هل يمكنني الحصول على بعضها؟»

«لا أملك منها شيئاً.»

«أين أستطيع الحصول عليها؟»

«لا أعرف. التالي.؟»

بعد ذلك سأحتاج إلى طوابع معينة، وليـس في المكـان مـا أريـده، ولقـد أحضرت صورتين واحتجت إلى ثلاث، والآلة التي تصور لا تقبل إلا خمسة وعشرين سنتافو ولا يمكن العثور على قطعـة نقديـة مـن هـذه الفئـة في كـل برشلونة.

كان الظلام قد بدأ يخيم حين استقليت أخيراً القطار إلى مـنزلي في كاييـا دي لا كوستا. لقد كنت داخل العصّارة. نمت لحظة جلوسي.

استيقظت حين نقرني شخص على كتفي. فتحت عيني فرأيت شخصاً أجنبياً في بيجاما ممزقة يقف فوقي.

«جواز سفر.»

مزق المجنون ورقة صحيفة قذرة وكان يتنقل من عربة إلى أخرى، ويسلم قطعاً إلى المسافرين:

«جوازات سفر! خذوا جوازات سفر!...»

حضارة المستهلك

أحياناً، في نهاية الصيف حين يغادر السياح كابيا، بوسعك أن تسمع أنيناً يأتي من الغابة. كانت صرخات الكلاب المقيدة إلى الأشجار.

كان السياح يستخدمون الكلاب ليستريحوا من عزلتهم في أثناء العطلة، ثم حين يحين وقت المغادرة، يربطونها عميقاً في الغابة ليمنعوها من اللحاق بهم.

تاريخ مدينة بوينوس آيرس

في منتصف ١٩٨٤، سافرت إلى نهر الفضة. كان قد مر أحد عشر عاماً لم أر فيها مونتيفيديو، وثمانية لم أر فيها بوينس آيرس. غادرت مونتيفيديو لأنني لا أحب أن أكون سجيناً، وبوينس آيرس لأنني لا أحب أن أكون ميتاً. بحلول ١٩٨٤ كانت الديكتاتورية العسكرية الأرجنتينية قد غادرت تاركة خلفها آثار دماء وقذارة لا تمحى، وكانت ديكتاتورية الأوروغواي العسكرية في طريقها إلى الزوال.

كنت قد وصلت لتوي إلى بوينس آيرس. لم أعلم أصدقائي. أردت أن يحدث لم الشمل بشكل تلقائي.

رافقني صحفي من التلفزيون الهولندي في الرحلة وأجرى معي حواراً أمام باب منزل كان لي. سألني الصحفي ما الذي حدث لصورة كنت أعلقها في منزلي، وهي صورة ميناء، ميناء مونتيفيديوي للوصول، لا للمغادرة، ميناء تقول فيه مرحباً لا وداعاً، وبدأت أجيبه وعيناي مثبتتان على عين الكاميرا الحمراء. قلت له لا أعرف ما حدث للوحة أو أين رسامها، صديقي الأورغوايي إميليو، إميليو كازابلانكا الأسود. لقد فقدت الصورة وإميليو في الضباب كما فقدت كثيراً من البشر والأشياء في سنوات الإرهاب والوحشة تلك.

وبينما كنت أتحدث، لاحظت ظلاً مر خلف الكاميرا وتوقف جانباً ينتظر. حين انتهيت وانطفأت عين الكاميرا الحمراء، حركت رأسي وشاهدته. في تلك المدينة التي يسكنها ثلاثة عشر مليون شخص، وصل إميليو إلى الزاوية بمحض المصادفة، أو مهما دعيت، وكان في ذلك المكان الخاص في تلك اللحظة الخاصة. تعانقنا ورقصنا، وبعد كثير من المعانقات قال لي إميليو إنه منذ أسبوعين بدأ يحلم أنني أعود، ليلة بعد أخرى، والآن لا يصدق ذلك.

ولم يصدق ذلك. في تلك الليلة اتصل معي إلى الفندق ليسأل إن لم أكن حلماً أو هلوسة، ليسألني إن كنت أنا.

حنين/١

في بوينس آيرس، بحثت عن مقهاي القديم ولم أستطع العثور عليه. بحثت عن المطعم الذي كنت أتناول فيه أطباقاً كبيرة من الكاراكو طوال ساعات النهار أو الليل، ولم أجده كذلك. في مكان باري المفضل، الباتشين، علت كومة من الأنقاض. هدموا الباتشين، وبذلك قتلوا السوق حيث كنت دائماً أشتري الفاكهة والأزهار أو أشارك في حفلة العيون

والأنوف تلك. قال لي أحد ما إن الباتشن انتقل وهو الآن في مكان آخر، وباسم مختلف.

ذهبت إلى هناك في إحدى الليالي. وقفت خارج باب هذا الباتشين الجديد الذي لم يعد يدعو نفسه بهذا الاسم، غير متأكد، نعم أو لا، متسائلاً إن كان الدخول سيعني الخيانة، حين حدث انفجار مفاجئ حين فتحت الباب ورمي كل شيء في الظلام. نظرت حولي ثم ابتعدت ببطء.

وهكذا سرت لبرهة، متأملاً من ذكريات منسية، باحثاً عن بشر وأشياء لم أجدها أو لم أعرف كيف أجدها، وأخيراً عبرت النهر، النهر الكبير ودخلت إلى الأوروغواي.

كان جنرالات الأوروغواي لا يزالون في السلطة، ولكن في نهايتهم. حان تقريباً وقت وداع الإرهاب. دخلت شابكاً أصابعي وكنت محظوظاً.

وسائراً في شوارع المدينة التي ولدت فيها، بدأت أتعرف عليها وشعرت بأنني أعود وكأنني لم أغادر مطلقاً: مونتيفيديو، في قيلولتها الأبدية على هضاب الساحل المنحدرة، اللامبالية بالريح التي تصفعها وتناديها، مونتيفيديو المضجرة والمحبوبة، التي تفوح برائحة الخبز في الصيف والدخان في الشتاء. وعرفت أنني كنت أحن إلى الوطن ولقد دقت ساعة نهاية منفاي.بعد التجول في كثير من البحار، يسبح سمك السلمون بحثاً عن نهره، يجده ويسبح فيه عائداً، تقوده رائحة المياه إلى الجدول الذي جاء منه.

ثم، حين عدت إلى كاييا لأودع أسبانيا وأشكرها أصابتني نوبة قلبية.

حنين/ ٢

حين يأتي الجفاف ويجفف مياه نهر الأوروغواي يعود الناس من بويبلو فيديراثيون إلى وطنهم الضائع. حين تتراجع المياه، يتعرى مشهد طبيعي قمري ويعود الناس.

يعيشون الآن في مكان يدعى بويبلو فيديراثيون، اسم بويبلو القديمة قبل أن تغرق تحت المياه، التي طافت من سد غراندي. لم يبق أثر من بويبلو القديمة، حتى الصليب على برج الكنيسة، وبويبلو الجديدة أكثر وجمالاً. لكنهم يعودون إلى بويبلو القديمة التي يمنحها الجفاف لهم طالما يستمر.

يعودون ويسكنون المنازل التي كانت منازلهم والتي هي الآن أطلال مخربة. هناك، حيث ماتت الجدة وحدث الهدف الأول والقبلة الأولى، يشعلون النار من أجل المتة والشواء، بينما تنبش الكلاب الأرض بحثاً عن عظامٍ دَفَنَتْها.

الزمن

في ذلك المساء، روت لي أليخاندرا أدوم:

كانت أم ألينا تستعد للخروج. نظرت ألينا إليها، تجلس أمام المرآة، تضع أحمر الشفاه، تنتف حاجبيها وتبودر وجهها. جربت فستاناً، ثم آخر، ارتدت عقداً مرجانياً ومشّطتْ شعرها، وشع جسدها كله بالنظافة والضوء المعطر. لم تستطع ألينا أن تشيح بنظرها عنها.

«*كم أحب أن أكون في سنك،*» قالت ألينا.

«*أنا، من ناحية أخرى، سأمنح كل شيء لأكون في سن الرابعة مثلك.*»

في تلك الليلة، حين عادت، وجدت الأم أن ألينا مستيقظة. ضمتها ألينا بإحكام حول ساقيها.

قالت وهي تبكي: «*أشعر بالرعب من أجلك.*»

انبعاثات/1

ذبحة قلبية ماكرة، الموت يتشبث بمركز صدري. أمضيت أسبوعين غائصاً في سرير مستشفى في برشلونة. عندئذ ضحيت بدفتر عناويني الممزق بوركي ٢، الذي كان يتداعى، رغم أنني لم أتحمل ذلك. وأنا أبدل دفتر عناويني عشت من جديد الأعوام منذ أن ضحيت بـ بوركي ١. وبينما كنت أنقل الأسماء، والعناوين، وأرقام الهاتف إلى الدفتر الجديد، كنت أكتسب منظوراً واضحاً عن اختلاط الأزمنة والبشر الذين كنت أعيش معهم، دوامة متع وآلام كثيرة عميقة، وكان هذا ندباً مطولاً للموتى الذين بقوا في منطقة قلبي الميتة، واحتفاء طويلاً، أكثر طولاً بأولئك الأحياء الذين أشعلوا دمي ونفخوا قلبي الحي. ولم يكن هناك شيء سيئ أو غريب حول حقيقة أن قلبي تحطم من الاستخدام الكثير.

المنزل

كان ١٩٨٤ عاماً خرائياً. قبل أزمتي القلبية، أجريت عملية في ظهري وفقدت هيلينا طفلاً في منتصف الحمل. حين فقدت هيلينا الطفل تقلصت شجرة الورد على المصطبة. ماتت الأزهار الأخرى واحدة بعد أخرى ـ كلها ـ رغم أننا كنا نسقيها كل يوم.

بدا المنزل كأنه ملعون. ومع ذلك، بقي ناني وألفريدو أويرما هناك لبضعة أيام وقبل أن يغادرا كتبا على المرآة:

«*كنا سعداء في هذا المنزل.*»

ونحن أيضاً عثرنا على السعادة في ذلك المنزل،ونجحت سعادتنا في التغلب على الشك والذكريات السيئة. المنزل الحزين، ذلك المنزل الرخيص، الدميم، المتوضع في حارة رخيصة ودميمة، كان مكاناً مقدساً.

الفقدان

حلمت هيلينا أنها طفلة ولم تستطع أن ترى أي شيء. وهي تبحث في الظلام، صرخت طالبة النجدة، الضوء، لكن لم يشعل أحد الأضواء. كانت ظلمة لعينة ولم تستطع أن تعثر على أشيائها التي كانت مبعثرة في المنزل وفي المدينة، ووصلت إلى أشيائها بيديها وعلى ركبتيها في الظلمة وكانت كذلك تبحث عن قطن أو أسمال أو أي شيء، لأن تيارات الدم كانت تتدفق من بين ساقيها ورغم أنها لم تستطع أن ترى أي شيء، شعرت بذلك النهر الأحمر الكثيف يتدفق من جسدها ويختفي في الظلام.

الرقية

روزاريو، الساحرة الأندلسية، كانت تقاتل الشياطين طوال أعوام. كان أسوأ شياطينها هو حموها. مات هذا الشخص الشرير في السرير في الوقت الذي قال فيه: «أتبرز على الخالق،» فسقط الصليب عن الحائط وشق جمجمته.

عرضت روزاريا أن تحارب شياطيننا. رمت قناعاً مكسيكياً جميلاً للوسيفر في سلة القمامة وبخرت المنزل بدخان أوراق الفيجن[1]، والغار المبارك. ثم قرعت الباب بحافر حصان والطرفان يشيران إلى الأسفل، علقت بعض فصوص الثوم وبعثرت حفنات من الملح وكثيراً من الإيمان.

«طعام وشراب جيدان للأوقات الصعبة ومداعبة للغيتار من أجل الجوع،» قالت.

ثم قالت إننا أحرار، لأن القدر لن يساعدنا إذا لم نساعده.

---

[1] نبتة طيبة ذات أوراق مرة.

وداعات

أمضينا تسعة أعوام على ساحل كاتالان وكنا على وشك المغادرة. لم يبق سوى يومين أو ثلاثة من المنفى حين استيقظنا لنجد الشاطئ مغطى بـالثلج. أضاءت الشمس الثلج وأوقدت ناراً ملتهبة على حافة المحيط جعلت الدموع تتساقط من عيني.

نادراً ما يسقط الثلج على الشاطئ. لم أر ذلك يحدث مطلقاً، وليس هناك إلا جار واحد عجوز من القرية تذكر شيئاً مماثلاً حدث منذ زمن بعيد.

بدا المحيط في غاية السعادة، يلعـق هـذا الصحـن الكبـير مـن البوظـة، وصوري الأخيرة عن كاييا دي لا كوستا كانت متعة البحـر وحقـل البيـاض المشع ذاك.

أردت أن أستجيب لوداع جميل كهذا، لكن لم يخطـر لي أي شـيء. لا شيء أفعله، لا شيء أقوله. لم أكن أبداً جيداً في التلفظ بكلمة وداع.

أحلام في نهاية المنفى/١

حلمت هيلينا أنها كانت تحاول أن تغلـق حقيبتهـا ولم تسـتطع القيـام بذلك، وكانت تضغطها بكلتا يديها وضغطتها بركبتيها وجلست عليها ووقفت عليها، ولم تنغلق. الألغاز والمقتنيات كانت تندفع من الحقيبة التي لا تغلق.

أحلام في نهاية المنفى/٢

كانت هيلينا في طريق عودتها إلى بوينوس آيرس، لكنها لم تعرف بأيـة لغة تتحدث أو أية عملة تستخدم. واقفة عند زاوية بويريدون، انتظرت رقم ٦٠ الذي لم يصل – الذي لن يصل مطلقاً.

أحلام في نهاية المنفى/٣

تحطمت نظارتها وضاعت مفاتيحها. دارت المدينة بحثاً عن مفاتيحها، زاحفة على يديها وساقيها، وحين عثرت عليها في النهاية، قالت لها المفاتيح إنها لا تفتح أياً من أبوابها.

طواف/١

ألبيرتو، والد هيلينا، استيقظ فجأة. كانت معدته تنشق من الألم. الوقت منتصف الليل ولم يتناول طعاماً ثقيلاً. في غضون ذلك، وبعيداً، كانت هيلينا تنجب ماريانا، البرغوث الصغير.

بعد سنوات، جف فم هيلينا وعثرت على قروح باردة فوق شفتيها بينما كان والدها يصارع حمى على وشك أن تقضي عليه. تحدثت مع هذيانه رغم أنها في مونتيفيديو وهو في بوينس آيرس، ولم تعرف شيئاً عما يحدث. وفي الوقت نفسه، عَبَر البحر، في منزل في برشلونة، استيقظت بيلار، إحدى صديقات هيلينا، محتارة من قفز لا يشرح في رأسها وقالت، دون أن تعرف لماذا، ولكن بيقين مطلق:

«*ثمة مشكلة تحدث لهيلينا. ثمة مشكلة.*»

طواف/٢

لم تكن تلك هبة ريح ضالة، من النوع الذي يتجول بلا هدف، إنما بالأحرى، عاصفة ضخمة اندفعت، دون شك، فوق الجبال والحدود الوطنية من الساحل البعيد، الضبابي إلى مدينة مدين. جاءت الريح إلى

منزل جيني وضربته: انفتح الباب الأمامي فجأة وكأن سكيراً رفسه، وبعد ثانية، انفتح الباب الخلفي بالعنف نفسه.

عندئذ عرفت جيني. حين عاد الهدوء من جديد، تساءلت عن الريح، الريحِ المجروحة، لكنها عرفت. والمرأة التي غسلت ثيابها، التي عاشت بعيداً في بلدة لا بينتادا، عرفت كذلك: كانت تغسل الثياب بمياه المطر في منتصف الليل، في الليلة نفسها حين سمعت شخصاً خلفها:

«*لقد رأيتها لتوي، يا فتاة. أقسم لك.*»

باكراً في الصباح وصلت برقية إلى مديين تحمل الأنباء، غير الضرورية مسبقاً: في منتصف الليل في تلك الليلة، باولا لوبيث، والدة جيني، صديقة الغاسلة الحميمة، ماتت في مدينة غواياكيل البعيدة.

زجاجة البيرة الأخيرة لكالدويل

كان ذلك في مساء الأحد من شهر نيسان. بعد أسبوع من العمل الشاق، كنت أشرب البيرة في بار بأمستردام. كنت مع أنيليس، التي ساعدتني بصبر قديسة فيما كنت أتجول في هولندا.

كنت أشعر بتحسن لا أعرف سببه، وكنت حزيناً قليلاً. وبدأت أتحدث عن روايات أرسكين كالدويل.

بدأ كل شيء بنكتة تافهة. مستاء من رحلاتي المتواصلة إلى الحمام بين زجاجات البيرة، قلت إن طريق البيرة يقود إلى الحمام كما يقود طريق التبغ إلى المنفضة، واعتقدت أن حس الفكاهة لدي قوي جداً. لكن أنيليس، التي لم تقرأ طريق التبغ، لم تستجب حتى بابتسامة. وهكذا شرحت لها النكتة، وهذا أسوأ ما يمكن أن يفعله المرء في موقف كهذا، وهذا هو السبب الذي جعلني أتحدث عن كالدويل ورعبه من جنوب الولايات المتحدة الأميركية. لم يكن هناك شيء يستطيع إيقافي.

مر عشرون عاماً منذ أن تحدثت عنه لأول مرة. لم أتحدث عن كـالدويل منـذ وقـت خروجـي مـع هوراشـيو بيتيـت إلى مقـاهي وبـارات مونتيفيديـو لنشرب النبيذ والروايات.

والآن، فيما أتحدث، وفيما يندفع التيار الجارف من فمي، أستطيع أن أرى كالدويل. رأيته في ظـل قبعتـه القشـية الباليـة، يهـتز علـى الـبرندة، سعيداً من هجمات هيئات الأخلاق والنقاد الأدبيين، يمضـغ التبـغ ويحلـم بحماقات ومصائب جديدة لشخصياته البائسة.

خيم الليل. لم أعرف كم أمضيت من الوقت وأنا أتحـدث عـن كـالدويل وأشرب البيرة.

في الصباح التـالي، قـرأت الأنبـاء في الصحـف: مـات الروائـي أرسـكين كالدويل البارحة في منزله في وادي الفردوس بأريزونا.

طواف/٣

حلمت هيلينا أنها كانت تتحدث هاتفياً مـع بيـلار وأنطونيـو، وأرادت أن تعانقهما فنجحت بإحضارهما من أسـبانيا عـبر الأسـلاك. انزلـق بيـلار وأنطونيو من خط الهاتف وكأنهما على مزلقـة، ركضـا وهبطـا، بهـدوء، في منزلنا بمونتيفيديو.

الجدران تتحدث/٤

في مركز مديين تماماً:

لا ألم، لا مكسب.

التوقيع:

عربة القاتل.

في مدينة ميلو في الأوروغواي:
ساعد الشرطة: عذب نفسك.
على حائط في ماساتيبي، نيكاراغوا، بعد وقت قصير من سقوط الديكتاتور سوموزا:
رغم أنهم يموتون من الحنين فإنهم لن يعودوا مطلقاً.

الغيرة من فوق

يؤمن هنود المايا أنه في بداية التاريخ، حين أنجبتنا الآلهة، كان بوسعنا، نحن البشر، أن نرى إلى ما وراء الأفق. كنا قد خلقنا لتونا، ورمت الآلهة غباراً في أعيننا لكي لا نصبح أقوياء.

فكرت بغيرة الآلهة حين علمت بموت صديقي رينيه ثاباليتا. رينيه، صاحب الذكاء المدهش، صرعه سرطان الدماغ.

قبل ذلك بنصف قرن، مات إنريكو كاروسو من سرطان في الحنجرة.

أنباء

ظنت القردة أن القط فيليكس هو طرزان، بوباي يلتهم علبه الناجعة، بيرتا سنغرمان تقرأ قصائدها، بأنين، في مسرح سوليس، مقص جينيول الطويل يقص بردك من جذوره، موسولويني يأخذ وضعية غزو إثيوبيا، الأسطول البريطاني يتمركز حول قناة السويس.

صفحة بعد صفحة، ويوماً بعد يوم، في المكتبة الوطنية، يعرض عام ١٩٣٥ نفسه أمام عيني بيبي بارينتوس. كان بيبي يبحث في الأعداد السابقة لصحيفة أوروغواي عن خبر معين – الأداء الأول للحن تانغو، أو تسمية شارع، أو شيء من هذا النوع، وطوال الوقت يشعر أن هذه ليست

المرة الأولى، أن ما يراه الآن رآه من قبل، أنه مر من هذا الطريق مـن قبـل، أن هذه ليست المرة الأولى التي قلب في هذه الصفحـات. سينما آرييـل هـي أول من عرضت فيلم جنغر روجر، شيرلي تيمبل الصغيرة تغـني وترقـص في الأرتيغـاس، الفلانيلـة المنقوعـة في الأنتيسـال سـوف تشـفي حنجرتـك المتقرحـة، سـفينة تحـترق على بعـد مائـة وخمسين ميـلاً مـن سـاحل مونتيفيديو، راقصة لها سمعة سيئة وجدت مقتولة فجراً، موسـوليني يلفظ إنذاره. مانشيت ضخم يعلن: الحـرب! الحـرب قادمـة! نعـم، لقـد شـاهد بيبي هذا من قبل. نعـم، بـالفعل: تلـك الصـورة، الـتي تقفـز كنسـر يفـرد جناحيه عبر الصفحة، الرفسة العملاقة لثيـا الباسـكي، وذراعـاه مقذوفتـان خلفه، تلك المانشيتات: ربما في طفولته، يعتقد ذلك. اندهش من تذكر زمـن قديم: في ١٩٣٥، منذ أكـثر مـن نصـف قـرن، كـان في سـن السادسـة. ثـم فجأة، خاف. أصابع الخوف الجليدية حكت قفا عنقه وعرف أنـه ينبغـي أن يذهب ويعرف أنه سيبقى.

وهكذا تابع. كان بوسعه أن يبدل الصحف أو الأعـوام، أو يبـدأ مسيره ببساطة نحو الباب، لكنه تابع. تابع بيبي مدفوعاً، لم يستطع أن يبتعـد، لم يستطع أن يتوقف، وغستيدو يقود فريق بينارول لكرة القـدم إلى النصـر، ولقد وقع السلام الآن بين الباراغواي وبوليفيا ولكن مشكلة السـجناء بقيـت ملحة، وعاصفة تغرق الزوارق في القناة الإنكليزية، وألقي القبض على قـاتل الراقصة، تبين أنه عشيقها، ثمانية سـنتات في جيبـه حـين اعتقـل، ومـن المضمون أن الهيمرود يصارع الربو، وفجأة تجمـدت يـد بيـبي الـتي قلبـت الصفحة لتوها، وصفعت صورة وجهه: صورة في العمود السادس للشـاحنة، المقلوبة والمحطمة، حشد من الفضوليين، ينظـرون إلى المصـور، ينظـرون إلى بيبي الذي ينظر إلى الناظرين، دون أن يراهم: بيبي، الذي أعمته الدمـوع، واجه صورة الشاحنة التي مات فيها والده، بعد أن سحق في ذلك الحـادث المشهدي المروع الذي هز حارة لا تيخا كلها، في مونتيفيديو، ظهراً، في ١٨ أيلول ١٩٣٥.

موت

لم يكن حتى عشرة أشخاص يذهبون إلى القراءات الأخيرة للشاعر الأسباني، بلاس دي أوتيرو. ولكن حين مات بلاس دي أوتيرو، ذهب الآلاف إلى التبجيل الذي عقد تخليداً لذكراه في حلبة لمصارعة الثيران في مدريد.

لم يكن يمتلك فكرة عن السبب.

بكاء

حدث هذا في الغابة، في غابة الأمازون الإكوادورية. كان هنود شوار يبكون على جدة أحد الأشخاص الموشكة على الموت. كانوا يجلسون قرب سريرها، ويبكون. شخص من عالم آخر رأى الحدث فسألهم:

«*لماذا تبكون أمامها وهي لا تزال حية؟*»

فأجابه الذين كانوا يبكون:

«*لكي تعرف كم نحبها.*»

احتفاء بالضحك

خوسيه لويس كاسترو، النجار المحلي، يمتلك يداً ماهرة جداً. الخشب يعرف أنه يحبه فلا يقاومه.

جاء والد خوسيه لويس إلى نهر الفضة من قرية في بونتيبيدرا. تذكر الابن والده، الوجه المضاء تحت قبعة بنمية، ربطة حريرية حول عنق بيجامته السماوية، وعلى الدوام يروي قصصاً خيالية. أينما كان، يتذكر الابن، ينفجر الضحك. حين يروي قصصاً يأتي البشر من جميع الأنحاء

ليضحكوا ويغص بهم المنزل. في الجنازات، يتوجب عليهم رفع التابوت بحيث يمكن أن يقف الجميع – وهكذا يقف الميت ليصغي باحترام بالغ إلى كل ما كان يقال برشاقة.

ومن بين جميع الأمور التي تعلمها خوسيه لويس من والده، كان الشيء الرئيسي هو هذا: «الشيء المهم هو أن تضحك، وأن تضحك مع الآخرين،» هذا ما علمه العجوز لابنه.

الجدران تتحدث/5

في قسم العلوم الاقتصادية في مونتيفيديو:

المخدرات تؤدي إلى فقدان الذاكرة وأمور أخرى لا أقدر أن أتذكرها.

في سانتياغو دي تشيلي، على ضفتي نهر مابوتشو:

مباركون هم السكارى، لأنهم يرون الله مرتين.

في حي العمال فلوريس في بوينس آيرس:

عشيقة بدون حلمتين هي صديقة أكثر مما هي عشيقة.

بائع الضحك

أنا على الشاطئ في ماليبو، في البقعة التي عثر فيها المحقق فيليب مارلو منذ نصف قرن على إحدى جثثه.

أشار جاك مايلز إلى منزل جميل على مرتفع في المسافة: الذي كان مرة منزل الرجل الذي زود هوليود بالضحك. منذ عشرة أعوام، أمضى جاك بعض الوقت في ذلك المنزل، قبل أن يقرر متعهّد الضحك أن يغادر إلى الأبد.

كان المنزل منجّداً بالضحك من أرضيته إلى سقفه ذلك أن هذا الرجل أمضى حياته كلها وهو يجمع الضحك. حاملاً مسجلة في يده سافر إلى الولايات المتحدة، من الأعلى إلى الأسفل، من القمة إلى القاع، بحثاً عن الضحك، ولقد جمع أضخم مجموعة في العالم. سجل متعة الأطفال الذين يلعبون والاحتفالات المنهكة للعجائز. كان لديه ضحك من الشمال والجنوب، من الشرق والغرب. ووفق الطلب، يستطيع أن يقدم ضحك الحماسة أو الألم أو الذعر، قهقهة العشاق، مرح الأشباح الذي يخثر الدم، وشهيق وزئير المجانين، السكارى والمجرمين. وبين آلاف أشرطته المسجلة لديه ضحك مخلص وضحك مشبوه، ضحك أسود، خلاسي، وأبيض، ضحك فقير وغني وما بينهما.

ولقد أصبح غنياً من بيع الضحك للسينما، والإذاعة، والتلفزيون، لكنه كان، في الحقيقة، رجلاً كئيباً وتستطيع زوجته أن تمحو الابتسامة عن شفتي أي شخص بنظرة واحدة.

تركا المنزل الذي على شاطئ ماليبو ولم يعودا إليه. كانا هاربين من المكسيكيين، الذين يأتون إلى كاليفورنيا بأعداد متزايدة مع طعامهم المتبل بالبهارات وعاداتهم اللعينة في الضحك برؤوسهم. يعيشان الآن في جزيرة تاسمانيا، التي هي قرب أستراليا، لكن بعيداً جداً.

شعري التالف

يذلني الحلاقون لأنهم لا يطلبون إلا نصف الأجر.

منذ عشرين عاماً، عرضت المرآة البقع العارية الأولى المخبأة تحت كتلة شعري الكثيفة. في هذه الأيام، أرتجف من الرعب من انعكاس صلعتي المضيئة في النوافذ وواجهات المحلات الزجاجية.

كل شعرة تسقط، كل خيط، هو رفيق ساقط كان له اسم قبل السقوط، أو على الأقل رقم.

أعزي نفسي بتذكر ما قاله لي صديق حميم:

«لو كان الشعر مهماً لنما داخل رأسنا وليس خارجه.»

ولقد عزيت نفسي كذلك بملاحظة أنني في جميع تلك الأعوام فقدت الكثير من الشعر لكنني لم أفقد فكرة واحدة، وهذا يمنحني السعادة حين أقارن نفسي مع جميع البشر الذين يعيشون حياة ندم.

احتفاء بالولادة المتواصلة

قدم ميغيل مارمول دورة أخرى من الرم وقال لي إنه يحيي الذكرى الخمسين لإعدامه. في ١٩٣٢، قضت عليه كتيبة من الجنود بأمر من الديكتاتور مارتينيث. قال ميغيليتو:

«إنني في الثانية والثمانين، لكنني لا أنتبه إلى ذلك. لدي الكثير من العشيقات. ولقد وصفهن لي الطبيب.»

قال لي إنه كان متعوداً على الاستيقاظ قبل الفجر، وحالما يفتح عينيه، يغني ويرقص ويقفز، الأمر الذي لم يحبه الجيران مطلقاً.

ذهبت لأحضر له الجزء الثالث من **ذاكرة النار**. خدمت قصة ميغيل كمحور للكتاب: موته إحدى عشرة مره وانبعاثه إحدى عشرة مرة في مجرى حياته الصراعية. ولد في إلوبانغو، السلفادور، ميغيل هو الاستعارة الأكثر صدقاً لأميركا اللاتينية. مثله، ماتت أميركا اللاتينية وولدت مرات عديدة. ومثله تتابع ولادتها.

قال لي: *«لكن لا معنى للحديث عن هذا، يقول لي الكاثوليكيون إن السبب هو العناية الإلهية، أما رفاقي الشيوعيون فيقولون إنها مصادفة بحتة.»*

اقترحت أننا أسسنا معاً الماركسية السحرية: نصفها عقل، نصفها هيام، ونصف ثالث هو لغز.

قال: *«ليست فكرة سيئة.»*

الانجاب

بعد ثلاثة أيام من العمل، لم يولد الطفل.

«*إنه عالق. الصغير عالق*،» قال الرجل.

جاء من مزرعة بعيدة في الريف.

ذهب الطبيب معه.

وهو يحمل حقيبته، سار الطبيب تحت شمس الظهيرة نحو الأفق، في ذلك العالم المهجور حيث يبدو كل شيء مولوداً من قدر لعين. فهم حين وصل إلى هناك.

فيما بعد، روى لغلوريا غالبان:

«*كانت المرأة على باب الموت لكنها كانت لا تزال تلهث وتتعرق، وكانت عيناها متسعتين جداً. لم يكن لدي تجارب في مواقف مثل هذه. كنت أرتجف، لم أملك أدنى فكرة ماذا أفعل. ثم، وأنا أرفع الشرشف، شاهدت ذراعاً صغيرة تخرج من بين ساقي المرأة المنفرجتين.*»

أدرك الطبيب أن الرجل كان يسحبه. كانت الذراع الصغيرة دون حياة: قطعة من الجلد، سوداء، بدم جاف. وفكر الطبيب: لا يمكن فعل أي شيء.

ومع ذلك، لأي سبب، داعب الذراع. حك العضو الجامد بالسبابة، وحين وصل إلى اليد، انطبقت فجأة، وأمسكت أصابعه.

عندئذ طلب الطبيب ماء مغلياً ورفع كميه.

انبعاثات/٢

حدث هذا في أثناء الديكتاتورية العسكرية في البرازيل.

سمح له الجنرالات بالدخول لكي يموت في وطنه.

عاد دارسي ريبيرو من المنفى وأخذ مباشرة إلى المستشفى في سيارة إسعاف كانت تنتظره قرب الطائرة.

كان دارسي يعرف أنه مصاب بداء عضال بلع على الأقل إحدى رئتيه، لكنه كان ممتلئاً بمتعة وجوده في بلد ولادته حيث شعر بأنه حي ونابض بالحياة كما كان.

جاء شقيق دارسي من مدينة مونتي كارلو. جاء ليودع شقيقه. جلس قرب دارسي ونظر إلى قدميه. كان باكياً وكئيباً ودارسي يبذل ما بوسعه ليبهجه. وهكذا أمسك الجراح دارسي من ذراعه وأخذه إلى المدخل:

قال: «*لا أريد أن أسبب لك الإحباط، وأعتقد أنه يجب أن تهيئ نفسك من أجل الأسوأ. ستكون معجزة إن خرج شقيقك من هنا حياً.*»

لم يتوقف دارسي عن الضحك، ولم يفهم الطبيب السبب.

أجروا له عملية في اليوم التالي. استيقظ دارسي دون إحدى رئتيه. برئة واحدة كثيرة، لم يلاحظ أي شيء.

انبعاثات/٣

كنت في سينت بيير. في ما بقي من سينت بيير.

كانت أكثر المدن جمالاً في منطقة الكاريبي إلى أن أحرق البركان سكانها الثلاثين ألف وحولهم إلى فحم.

النبوءة المأساوية لعالم قلب رأساً على عقب: كان الناجي محكوماً، وكان رجل محكوم هو الوحيد الذي نجا. بعد ثلاثة أيام من الكارثة، لودجر سيلباريس، المسجون بتهمة التشرد، بزغ حياً، محروقاً بشكل سيء لكنه حي: فقط جدران السجن الكثيفة كانت قادرة على مقاومة التدفق الناري للبركان.

«*سيداتي سادتي! الوحيد، الواحد! الرجل الذي نجا من الجحيم! معجزة إلهية! انظروا جيداً! والسريعو الغثيان كانوا يغطون أعينهم!*»

أصبح سيلباريس الشيء الرئيسي الجذاب في سيرك برانوم وهو يتنقل في أنحاء العالم. كان ملفتاً للانتباه أكثر من السيدة الملتحية أو الفتى الذي برأسين. كان يمد ذراعيه ويستدير ببطء، عارضاً جسده الخام بينما كان الحشد يرتجف من الرعب والمتعة.

الأخوة الثلاثة

في نيكاراغوا، في أثناء سنوات الحرب ضد سوموزا، قلقت صوفيا مونتينيغرو فلم تنم. كان أخوتها موضوع كوابيسها المتكررة. حلمت بكمين وبمطر من الرصاص في كوابيس حدثت في أرض لا يملكها أحد أو في الممر الذي يؤدي إلى تيسكابا. بعد الانفجار الأخير، أحد أخوة صوفيا، وهو مقدم يخدم الديكتاتورية، سيمزق عصابة الأعين عن وجوه الضحايا، وبين الموتى سيجد شقيقها الآخر.

مع شقيقها، ذلك الذي سقط في الحلم، تنتمي صوفيا إلى الجبهة الساندينية. الشقيق المعادي، المقدم، قصف مدينة إستيلي وعذب السجناء. ولكن في أحلام صوفيا، كان للشقيقين، الجندي، ورجل العصابات، عيناها: بديا تماماً مثلها، كانا هي.

الرأسان

ربما سمي عمر كابيثاز (تعني رأس) لأنه يستخدم رأسه الآخر. وربما بهذه الطريقة وصل إلى نهاية الطريق الصعب الذي هو الثورة النيكاراغوية، وبهذه الطريقة وصلها حياً.

كان عمر ولداً يلعب في حرب رمي حجارة في مدينة ليون. كانت القذائف تتساقط بين زاويتين في شارع يصعب وصفه عندما شاهد عمر

صخرة ضخمة قذفها العدو تتجه إليه مباشرة. شاهد المسار الذي لا يخطئ للصخرة المحمولة جواً وبدأ يركض: أراد أن يركض إلى الجانب الآخر، أن يهرب، أن ينقذ نفسه، لكنه لم يستطع أن يمنع رأسه من الاندفاع نحو موعده مع الصخرة التي كانت مصيره ووصل رأسه إلى البقعة المحددة وفي اللحظة المحددة لكي تضربه وتسحقه الصخرة الهابطة.

هكذا فقد عمر رأسه الأول. مذاك، بدأ يستخدم رأسه الآخر، الذي ليس مجنوناً تماماً كالأول.

انبعاثات/٤

قال أرنستو كاردينال: *إن الكاذب يرتكب ذنباً لأنه يسرق من الكلمات حقيقتها*.

في حوالي ١٥٢٤، أشعل فراي بوباديا ناراً كبيرة في قرية ماناغوا ورمى كتب الهنود في ألسنة اللهب. كانت الكتب مصنوعة من جلود الغزلان مع صور مرسومة بلونين: الأحمر والأسود.

كان قد كذب على نيكاراغوا طوال قرون حين اختار الجنرال ساندينو هذين اللونين، غير مدرك أنهما كانا لوني رماد الذاكرة القومية.

البهلوان

كانت لوث ماريا أكوستا طفلة صغيرة حين اكتشفت سيرك فيروليتشي الذي ظهر في إحدى الليالي كسفينة ضوء سحرية من أعماق بحيرة نيكاراغوا. كانت الأبواق الكرتونية للمهرجين أبواق حرب والأسمال الملتهبة التي أعلنت عن أعظم حفل في العالم كانت رايات رفيعة. كانت الخيمة مغطاة بالرقع وكذلك الأسود – أو بالأحرى أسود متقاعدة. لكن الخيمة

كانت قلعة والأسود ملوك الغابة، والسيدة الريانة التي تتلألأ بالماس الزائف وتثب على أرجوحة البهلوان التي ترتفع باردة عن الأرض كانت ملكة الفردوس.

وهكذا قررت لوث ماريا أن تصبح بهلوانة، وبالفعل قفزت من ارتفاع شاهق وفي عملها البهلواني المهم الأول في سن السادسة كسرت أضلاعها.

واستمرت حياتها هكذا. في الحرب، الحرب الطويلة ضد ديكتاتورية سوموزا، وفي الحب: دائماً كانت تحلق وتكسر أضلاعها.

لأنك حالما تنضم إلى سيرك فيروليتشي، لا تغادره مطلقاً.

الأزهار

كان الكاتب البرازيلي نيلسون ريدريغويز محكوماً بالوحدة. كان له وجه ضفدعة ولسان أفعى وعلى قمة دمامته المشهورة ولسانه السام كانت شهرة حظه السيئ المعدي: البشر الذين حوله ماتوا من الرصاص، البؤس أو الحوادث المهلكة.

في أحد الأيام قابل نيلسون إليونورا. في ذلك اليوم، يوم الاكتشاف، حين شاهدها للمرة الأولى، صعقته متعة مفاجئة وتركته دائخاً. عندئذ أراد أن يتفوه بإحدى عباراته المتألقة، لكن الضعف دب في ركبتيه وربط لسانه ولم يصدر عنه إلا اللعثمة والضجيج.

قصفها بالأزهار. كان يرسل الأزهار إلى شقتها في الطابق الأعلى من بناية مرتفعة في ريو دي جانيرو. كان يرسل إليها كل يوم باقة كبيرة من الأزهار بألوان مختلفة في كل مرة، دون أن يكرر لوناً أو رائحة، وينتظر في الأسفل. من الشارع، يراقب شرفة إليونورا، ومن الشرفة، كل يوم، ترمي الأزهار في الشارع لتسحقها السيارات.

استمر الوضع خمسين يوماً، إلى أن جاء يوم لم ترم فيه الأزهار التي أرسلها نيلسون إلى الشارع لتسحقها السيارات.

في ظهيرة ذلك اليوم، صعـد إلى الطـابق العلـوي، قـرع الجـرس وانفتـح الباب.

النمل

كانت تريسي هيل طفلة في بلدة بولاية كونيكتيكـت تسـلي نفسـها كمـا يناسب طفلة في سنها، كأي ملاك آخر صغير ورقيق في كونيكتيكـت أو أي مكان آخر على هذا الكوكب.

في أحد الأيام، حـين كـانت مـع رفيقاتهـا في المدرسـة، بـدأت تريسـي ترمي أعواد ثقاب مشتعلة على كومـة نمـل. استمتع الجميـع بذلـك اللهـو العابث. على أي حال شاهدت تريسي شيئاً لم تـره الأخريـات أو تظـاهرن بذلك، الأمر الذي شلها وبقي إلى الأبد منقوشاً في ذاكرتها: وهو يواجه النار الخطيرة، قفز النمل في أزواج، اثنين اثنين، جنبـاً إلى جنـب، ضغـط علـى بعضه، وانتظر الموت.

الجدة

ماتت جدة بيرثا جينسين وهي تلعن. عاشت حياتها كلها على رؤوس أصابع قدميها وكأنها تعتذر مـن كونهـا مزعجـة، مكرسـة لخدمـة زوجهـا ونسلها المؤلف من خمسة أبناء، كانت زوجـة مثاليـة، أمـاً نـاكرة لذاتهـا، عمود فضيلة صامتاً: لم تخرج شكوى واحدة من بين شـفتيها، إذا تجاوزنـا عن ذكر اللعنات.

حين أصابها المرض، نادت زوجها، أجلسته قربها على السرير وفاضت في الحديث. لم يشتبه أحد أنها تمتلك قاموس مفردات بحار سكران. كانت تحتضر منذ وقت طويل. لأكثر من شهر كانت الجدة تتقيأ من سريرها تياراً

لا يتوقف من اللعنات والتجديف من أعماق روحها. حتى صوتها تغير. هذه المرأة التي لم تدخن أو تشرب مطلقاً أي شيء سوى الحليب أو الماء أصبحت عاهرة بصوت أجش من شرب الويسكي. وهي تتحدث كعاهرة ماتت وعم ارتياح في الأسرة وفي الحارة.

ماتت حيث ولدت، في بلدة دراغور، على ساحل الدينمارك. كان اسمها انجي ولها وجه غجري وكانت تحب أن ترتدي ملابس حمراء وتبحر في الشمس.

الجد

روى لي هذه القصة عن جده رجل يدعى أماندو، ولد في بلدة ساليتري على ساحل الإكوادور.

نظر إليه أبناء الأحفاد بالدور. لقد وضعوا قفلاً وسلاسل على الباب. قال السيد سيغوندو إدالغو إن هذا كان سبب أمراضه:

«*أنا مصاب بروماتيزم قط مخصي.*»

في سن المائة، كان السيد سيغوندو يستغل أي إهمال ليمتطي ظهر حصانه العاري وينطلق بحثاً عن العشيقات. لم يكن يعرف أحد قدر ما يعرف عن الأحصنة والنساء. لقد ملأ بلدة ساليتري ومحيطها بالسكان، منذ أن أصبح أباً للمرة الأولى في سن الثالثة عشرة.

اعترف الجد بأنه عاشر ثلاثمائة امرأة، رغم أن الجميع كانوا يعرفون أنه عاشر أكثر من أربعمائة. لكن إحداهن، بلانكيتا، كانت الأكثر أنوثة بينهن.

مر على وفاة بلانكيتا ثلاثون عاماً ورغم ذلك كان دائماً يستحضر اسمها عند الغروب. أماندو، الحفيد الذي روى لي القصة، كان يختبئ ويتلصص على الطقس السري. على الشرفة، مضاء بالضوء الذاوي، كان الجد يفتح

علبة بودرة قديمة، علبة مستديرة على غطائها ملائكة قرنفلية، ويستنشق البودرة.

كان يستنشق الرائحة الضعيفة للمسحوق ويتمتم: «أعتقد أنني أعرفك. أعتقد أنني أعرفك.» وكان يهز نفسه بلطف يتمتم وهو يغفو على الكرسي الهزاز.

كل مساء كان الجد يقدم تبجيله للمرأة التي أحبها أكثر من غيرها، وكان يخونها مرة كل أسبوع. لم يكن مخلصاً مع سيدة سمينة تحضر أطباقاً معقدة على شاشة التلفزيون. الجد مالك التلفزيون الأول والوحيد في بلدة ساليتري، لا يفوت البرنامج بتاتاً. يستحم، يرتدي الأبيض، وكأنه ذاهب إلى حفلة، يعتمر أفضل قبعة لديه، بوطه الجلدي، صدرة بأزرار ذهبية وربطة عنق حريرية، ويجلس أمام الشاشة. وبينما كانت السيدة السمينة تدق البوظة وتستخدم مغرفتها ببراعة، تشرح مفاتيح نكهة فريدة، حصرية، لا تضاهى، كان الجد يحدق بها ويضربها بقبلات مختلسة. كان دفتر حساباته ينتأ من جيب بذلته الصدري. وضع الجد الدفتر بتلك الطريقة لكي ترى السيدة أنه ليس صعلوكاً فقيراً.

فوغا، السريع

بيتي بينيرو، الذي وصل لتوه من إل سلفادور، أحضر لي الأنباء:

«لقد مات.»

كانت طائرة العدو أسرع منه. بعد الهجوم، دفنه رفاقه. دفنوه بعد أن خيم الليل وأشاح الجميع نظرهم. لم يستطيعوا أن يواجهوا بعضهم بعضاً.

وصل فوغا إلى هناك قبل أربع سنوات وجاء ليبقى. وصل مع الفجر في أيام المطر الغزير ونصب نفسه في منتصف المعسكر تحت المطر. قصفه المطر لكنه بقي مقاوماً.

وبقي كذلك حين توقف المطر: حمار أو تمثال حمار مضروب ومخـرّب، عينه الوحيدة تحدق بهدوء من وجهه طول الوقت.

طرده رجال العصابات، أهانوه ورفسوه وضربوه لكنه لم يكترث.

وهكذا بقي. سموه فوغا لأنه كان الأسرع في النجاة في أثناء قصف العدو. أرسلوه بعيداً في مهمـات للجلـب والأخـذ وكـان يعـود دومـاً. كـان الفتيـان يتحركون دائماً، يعبرون جبال سان ميغيل المحروقـة مـن جـانب إلى آخـر وكان يعثر عليهم دوماً. وحين حاصرهم الجيـش، عـثر عليهـم فوغـا بعيـداً عبر حقول الألغـام وكأنهـا كعـك، بينمـا خرجـه ملـيء بـالبن، والتورتيـا، والتبغ، والرصاص، وكان يخترق صفوف العدو كأنها ليست شيئاً.

طلبوا منه: لا تخنا يا فوغا. وكان ينظر إليهم دون أن يرف له جفن.

كان الحمار الصغير يعرف كل شيء، قواعد العملية، ومخابئ الذخـيرة والمؤن، الممرات، والطرق المختصرة، العبور المختار للكمين القادم، وأصدقـاء رجال العصابات في جميع القرى. وكان فوغا يعرف المزيد، كـل مـا تنبغـي معرفته: كان حارس الأسرار. ولأن الحمار الصغـير كـان يعـرف أن يصغـي لآلام الجميع وشكوكهم وأسرارهم العميقة، وكذلك للفحول، رجال الحديـد الصامتين، سمحوا لأنفسهم أن يبكوا في حضوره.

احتفاء بالصداقة/1

على أطراف هافانا، يسمون الصديق، بلادي، أو دمي.

في كاراكاس، الصديق هو خبزي، أو مفتـاحي، المخـبز، مصـدر الخـبز المفيد الذي يطفئ جوع الروح، llave، من ...

«مفتاح من key،» قال لي ماريو بينيديتي.

وروى لي كيف أنه حين عاش في بوينوس آيرس في أزمنة الأرهاب، كان يحمل خمسة مفاتيح، في سلسلته، مفاتيح خمسة منازل، لخمسة أصدقـاء: المفاتيح التي برهنت على خلاصه.

احتفاء بالصداقة/٢

روى لي خوان غيلمان كيف، في جادة في باريس، تغلبت امرأة على كتيبة من العمال بمظلتها. كان العمال يصطادون الحمام حين خرجت من سيارة موديل ت لا تصدق، إحدى قطع المتحف، بذراع تدوير؟ وقامت بهجومها وهي تلوح بمظلتها.

حاملة سيفها بيديها الاثنتين اندفعت إلى الأمام، وسحقت مظلتها الفاضلة الشباك التي كانوا ينصبونها لاصطياد الحمام. وحين طارت الحمامات في اندفاعة من البياض، وجهت المرأة مظلتها إلى العمال.

حمى العمال أنفسهم بأذرعهم قدر استطاعتهم، مطلقين الاحتجاجات التي تجاهلتها: احترمي نفسك يا مدام، من فضلك، نحن نعمل، نتبع الأوامر، لماذا لا تشتكين للعمدة، اهدأي يا مدام، ماذا جرى لك؟ لقد جنت هذه المرأة...

حين تعبت ذراع المرأة الغاضبة واستندت على حائط لتأخذ نفساً، طلب العمال شرحاً.

بعد صمت طويل قالت:

«*لقد مات ولدي.*»

تأسف العمال قائلين إنهم يجب ألا يلاموا على ذلك، وأضافوا أن أمامهم الكثير من العمل في ذلك الصباح، فهل فهمت؟

قالت مرة أخرى: «*لقد مات ولدي.*»

ورد العمال: نعم، نعم، لكن يجب أن نكسب قوت يومنا، وأن هناك ملايين الحمامات المفلتة في كل باريس، وأن هذه الحمامات اللعينة هي طاعون المدينة. انفجرت المرأة:

«*أيها القميئون.*»

وأمام العمال المرتبكين قالت:

«لقد مات ولدي وأصبح حمامة.»

صمت العمال، وفكروا لبرهة وهم هادئون. أخيراً، وهم يشيرون إلى الحمام الذي يسكن السماء، السطوح القرميدية، والأرصفة، اقترحوا عليها:

مدام: «لماذا لا تأخذين ولدك وتتركيننا نعمل بهدوء؟»

عدلت قبعتها السوداء: *«كلا، مستحيل!»*

نظرت خلال العمال وكأنهم مصنوعون من الزجاج، وقالت بهدوء كبير:

«لا أعرف أية حمامة هي ابني. وحتى لو عرفت، لن آخذه. أي حق أملكه لأفصل بينه وبين أصدقائه.»

غيلمان

يكتب الشاعر خوان غيلمان رافعاً نفسه من أنقاض حياته، من غبارها وحطامها.

الحكومة العسكرية الأرجنتينية، التي ستسبب أعمالها الوحشية عقدة نقص لدى هتلر، ضربته في المكان الذي يؤذي أكثر من غيره. في ١٩٧٦، خطفوا أطفاله. أخذوا الأطفال بدلاً منه، عذبوا ابنته نورا وأطلقوها. قتلوا وأخفوا ولده مارثيلو، مع رفيقته الحبلى.

بدلاً منه: أخذوا أطفاله لأنه لم يكن في المنزل. كيف يحيا المرء إزاء مأساة كهذه؟ أي كيف يبقى حياً دون أن تنطفئ روحه؟ غالباً ما تساءلت في تلك السنوات الأخيرة. غالباً ما تخيلت ذلك الشعور المريع حيال استغلال حياة المرء، كابوس الأب الذي يتخيل أنه سرق من الابن الهواء الذي يتنفسه، الأب الذي يستيقظ في منتصف الليل مستحماً بالعرق: «لم أقتلك، لم أقتلك.» ولقد تساءلت: لو كان الله موجوداً، لماذا يسير عابراً فحسب؟ أيمكن أن يكون الله ملحداً؟

الفن والزمن

من هم معاصري؟ يسأل خوان غيلمان نفسه.

يقول خوان أنه يعثر أحياناً على رجال تفوح منهم رائحة الخوف، في بوينوس آيرس، باريس، أو في أي مكان في العالم، ويشعر أن هؤلاء الرجال ليسوا معاصريه. لكنّ هناك صينياً كتب منذ آلاف الأعوام قصيدة عن راعٍ بعيد عن حبيبته، ومع ذلك يستطيع أن يسمع في منتصف الليل، ووسط الثلوج، صوت مشطها يتغلغل في شعرها. وهو يقرأ قصيدته البعيدة، وجد خوان أن هؤلاء الأشخاص – الشاعر، الراعي، والمرأة – هم حقاً معاصرون له.

مهنة الإيمان

نعم، بالفعل: مهما كان المرء متألماً ومهدماً، يستطيع أن يعثر على معاصرين في أي مكان في الزمن، وعلى زملاء في أي مكان في العالم. وأينما حدث هذا، وطيلة استمراره، يكون المرء محظوظاً بأن يشعر بأنه شيء ما في عزلة الكون: شيء أهم من ذرة غبار سخيفة، أكثر من لحظة عابرة فحسب.

كورتاثار

بذراع واحدة فحسب، عانقنا كلينا. كانت ذراعه طويلة جداً، كما من قبل، لكن الباقي منه كان صغيراً، ولهذا السبب حلمت به هيلينا، مشتبهة، غير متأكدة بأن تصدق ذلك أم لا. شرح كورتاثار أنه شفي بفضل آلة يابانية، آلة جيدة جداً لكنها لا تزال في طور التجريب، وعن طريق الخطأ حولته الآلة إلى قزم.

قال لنا خوليو إن عواطف الأحياء تأتي إلى الموتى كرسائل، وأنه أراد أن يعود إلى الحياة بسبب الألم الكبير الذي شعر به والناتج عن الألم الذي سببه لنا موته. فضلاً عن ذلك، قال، إن كون المرء ميتاً مضجر بالأحرى. قال خوليو بأنه يرغب جداً في أن يكتب قصة عن ذلك.

تاريخ مدينة مونتيفيديو

خوليو سيزار بوبو، المعروف بالخشّاب، وألفريد غرابينا، قابلاني في إحدى الليالي في مقهى في حارة بيا دولوريس. وهكذا، بالمصادفة، اكتشفا أنهما جاران.

«قريبان دون أن نعرف ذلك؟»

قدم كل واحد للآخر كأساً، ثم آخر.

«تبدو جيداً جداً.»

«لا تصدق ذلك.»

وأمضيا عدة ساعات وشربا الكثير وهما يتحدثان عن الطقس المجنون وكلفة المعيشة، الأصدقاء الغائبين والأمكنة التي انقرضت، وذكريات الشباب.

«أتذكر؟»

«بالطبع أذكر.»

حين أغلق المقهى أبوابه، رافق غرابينا الخشّاب إلى باب منزله. لكن الخشاب أراد أن يرد المجاملة:

«سآتي معك.»

«لا تزعج نفسك.»

«ليست مشكلة.»

وأمضيا الليل كله يروحـان ويغـدوان. أحيانـاً توقفهمـا ذكـرى ملحـة أو الحاجة إلى المزيد من التوازن، لكنهما على الفور يواصلان الغدو والرواح من زاوية إلى أخرى، من منزل أحدهما إلى منزل الآخر، وكأن بنـدولاً لا مرئيـاً يدفعهما، يحبان بعضهما دون أن يعبرا، ويتعانقان دون أن يتلامسا.

سياج الأسلاك الشائكة

جاء أمر الاصطفاف كمفاجأة عنيفة. كانت أكـثر الليـالي بـرودة في ذلـك العام وفي أعوام كثيرة وطوق ضباب عدواني كل شيء.

بالصرخات وأعقاب البنادق، صف السـجناء بمواجهـة سياج الأسـلاك الشائكة الذي أحاط بالثكنة. من الأبراج، اخترقت أضواء التفتيش الضبـاب وببطء انعكست على الصف الطويل من البذلات الرمادية، الرؤوس المتجمدة والحليقة.

كانت الاستدارة إلى الخلف ممنوعة. سمع السجناء أصوات الأبواط وهي تركض والصلصلة المعدنية للرشاشات التي تستعد للإطلاق. ثم خيم الصمت.

في تلك الأيام سرت شائعة بين السجناء.

«سوف يقتلوننا.»

كان ماريو دوفورت أحد أولئـك السـجناء وكـان يتعـرق جليـداً. وكمثـل الآخرين، كانت ذراعاه ممدودتين ويداه متشبثتين بالأسلاك الشائكة: كـان يرتجف وكذلك كانت الأسلاك. قال في نفسه، يرتجف من الـبرد، ثـم ردد ذلك. لم يصدق ذلك.

شعر بالعار من خوفه. شعر بأنه جبان بسبب المشهد الذي يقدمه لرفاقه فترك الأسلاك.

لكن الأسلاك تابعت ارتجافها. تـابعت ارتجافهـا لأن جميـع الآخريـن كانوا يهزونها.

عندئذ فهم ماريو.

الفردوس والجحيم

وصلت إلى بلوفيلدز، على الساحل النيكاراغوي، بعد يوم من هجوم شنته قوات الكونترا. كان هناك الكثير من الموتى والجرحى. كنت في المستشفى حين استيقظ أحد الناجين، وهو طفل صغير، من الهجوم بعد أن زال عنه تأثير المخدر. استيقظ دون ذراعين، نظر إلى الطبيب وقال:

«اقتلني.»

شعرت بحكة في معدتي.

في تلك الليلة، الليلة الوحشية، كان الجو يغلي. رميت نفسي على مصطبة، وحيداً، وجهي إلى السماء. غير بعيد من هناك، ضج صوت الموسيقى. ورغم كل شيء، كان بشر بلوفيلدز يحتفلون بالمهرجان التقليدي الذي يدعى الميبولي. كانوا يرقصون بمرح حول الشجرة الطقسية. ولكن أنا، المتمدد على المصطبة، لم أرغب بسماع الموسيقى، أو أي شيء آخر، وكنت أحاول ألا أشعر أو أذكر أو أفكر بأي شيء مهما كان. وهناك كنت، أضرب الأصوات بعنف، وكذلك الحزن والبعوض، عيناي مثبتتان على السماء، حين كان طفل من بلوفيدز لا أعرفه يستلقي قربي وبدأ ينظر مثلي إلى السماء صامتاً.

ثم سقط نيزك. كان بوسعي أن أتمنى أمنية لكنني لم أفعل.

وشرح الطفل:

«*أتعرف لماذا تسقط النجوم؟ إنه خطأ الله. إن الله يثبتها بشكل سيء. إنه يثبت النجوم في مياه الأرز.*»

حييت رقص الفجر.

تاريخ ماناغوا

دعاني إلى العشاء القائد توماس بورغي الذي لم ألتق به من قبل. كانت له سمعة سيئة بأنه الأكثر فظاظة بينهم، وكانوا يخشونه جميعاً. كان هناك ضيوف آخرون حول المائدة، بشر رائعون. لم يقل شيئاً، أو ما يلي اللاشيء. كان يراقبني كأنه سيقبض علي.

في المرة الثانية تناولنا العشاء لوحدنا. كان توماس أكثر انفتاحاً، ويجيب بحرية على أسئلتي حول الأيام القديمة حين كانوا يؤسسون الجبهة الساندينية. وحوالي منتصف الليل، وكشخص يتجنب قول ما يعنيه بالفعل، قال:

«حسناً *الآن، ارو لي قصة فيلم.*»

توسلت إليه قائلاً إنني عشت في كاييا، وهي بلدة صغيرة لم يعرض فيها إلا بضعة أفلام قديمة.

ألح آمراً: «*حدثني عن فيلم، أي فيلم- حتى ولو لم يكن جديداً.*»

وهكذا حدثته عن كوميديا. رويت القصة ومثلتها. حاولت أن ألخص لكنه طلب تفاصيل. وحالما انتهيت قال:

«*حدثني عن فيلم آخر.*»

حكيت له عن فيلم لرجال المافيا بنهاية قذرة.

«*آخر.*»

حدثته عن فيلم كابوي.

«*آخر.*»

رويت له قصة حب، وقد صنعتها من نسيج كامل.

أعتقد أن الفجر كان وشيكاً حين استسلم وأنا أطلب الرحمة وذهبت إلى النوم.

قابلته بعد أسبوع. اعتذر توماس:

«مطلقاً.» لقد عصرت آخر قطرة منك في تلك الليلة. والسبب هو أنني أحب الأفلام كثيراً إلى درجة الجنون. ولا أستطيع أن أحضرها.

قلت له إن الأمر مفهوم بشكل كامل. كان وزير الداخلية النيكاراغوي في أثناء الحرب، ولم يكن العدو يمنح فرصة ولم يكن هناك وقت للأفلام أو لترف كهذا.

صحح لي: *كلا، كلا. لدي وقت، لدي وقت... تستطيع أن توفر الوقت إذا أردت. ليس السبب هو عدم توفر الوقت. في الماضي، حين كنت أعيش بشكل سري، غير معروف، كنت أرتب الذهاب إلى السينما. ولكن الآن...*

لم أسأله. صمت ثم تابع كلامه.

«لا أستطيع الذهاب إلى السينما لأنني... لأنني أبكي فيها.»

قلت: *«وأنا كذلك.»*

قال: *«بالطبع، عرفت ذلك في الحال. حالما رأيتك قلت في نفسي: هذا الشخص يبكي في السينما.»*

التحدي

«لم ينجحوا في جعلنا مثلهم،» هذا ما كتبه لي كاتشو إل كادري.

كان هذا في الأيام الأخيرة للديكتاتورية العسكرية في الأوروغواي. كنا نتناول الخوف بدلاً من طعام الإفطار، والخوف بدلاً من الغداء، والخوف بدلاً من العشاء. لكنهم لم ينجحوا في جعلنا مثلهم.

احتفاء بالشجاعة/ 1

غابرييل كارو، الكولومبي الذي قاتل في نيكاراغوا، روى لي أن سويسرياً سقط إلى جانبه، بعد أن شقه رصاص الرشاش، ولم يعرف أحد اسمه.

حدث هذا على الجبهة الجنوبية، على بعد بضع ليال من نهر سان خوان، قبل وقت قصير من هزيمة ديكتاتورية سوموزا. لم يكن أحد يعرف اسمه، لم يعرف أحد أي شيء عن رجل الميليشيا الأشقر الذي قطع مسافة طويلة ليموت من أجل نيكاراغوا، من أجل الثورة، من أجل القمر. سقط السويسري وهو يصيح كلمات لم يفهمها أحد. سقط وهو يصرخ:

«*يعيش باكونين!*»

وبينما كنت أصغي إلى غابرييل وهو يروي القصة أضيئت ذاكرتي: منذ سنوات، في مونتيفيديو، حدثني كارلوس بونابيتا عن عم أو قريب له كتب بعض الرسائل الحربية في زمن حروب الجاوتشو في سهول الأوروغواي. هذا العم كان يحصي القتلى على ضفة النهر حيث حصلت معركة لا أدري ما اسمها. ومن لون عصابات رؤوسهم استطاع أن يعرف مع أي جانب هم. وبينما هو منشغل بذلك، قلب جثة وتجمد. كان الشاب في ريعان الشباب، ملاكاً بعينين حزينتين. فوق شعره الأسود، المحمر من الدم، كتب على عصابة الشعر البيضاء: «*من أجل مسقط الرأس ومن أجلها.*» كانت الرصاصة قد ثقبت كلمة من *أجلها*.

احتفاء بالشجاعة/٢

سألته إن كان قد شاهد تنفيذاً لحكم الإعدام قامت به فرقة الإعدام. نعم، لقد شاهد واحداً. شاهد إل تشينو هيراس عقيداً أطلقت عليه النار في نهاية ١٩٦٠، في ثكنة لا كابانا. خدم كثيرٌ من الجلادين ديكتاتورية باتيستا، وهم وحوشٌ دميمة في خدمة الألم والموت. كان ذلك العقيد أكثرهم سوءاً.

كنت مع مجموعة من الأصدقاء في غرفة فندق في هافانا. روى إل تشينو كيف طلب منهم العقيد ألا يعصبوا عينيه ولم يكن طلبه الأخير سيجارة.

صاح العقيد: استعدوا! ثم سددوا! وبينما كان عليٌ وشك أن يصرخ نـار تعطلت بندقية أحد الجنود فقاطع العقيد الطقس قائلاً اهـدأوا أمـام الصـف المزدوج للرجال الذين سيقتلونه. كانوا قريبين بحيث يقدر أن يلمسهم:

قال: «اهدأوا. لا تصبحوا عصبيين.»

ومرة أخرى أمرهم أن يجهزوا بنادقهم ويسددوا.

وحين استعد الجميع مرة أخرى، أمرهم أن يطلقوا النار. وسقط.

روى إل تشينو عن موت العقيد ولم يقل أحد كلمة. كـان هنـاك العديـد منا في الغرفة وكنا جميعاً صامتين.

كانت في الغرفة فتاة متمددة كقطة على السرير وترتدي ملابـس حمـراء. لا أذكر اسمها بيد أنني أذكر ساقيها. لم تتفوه بأية كلمة كذلك.

شربنا زجاجتين أو ثلاثاً من الرم وفي النهاية ذهـب الجميـع إلى النـوم. ذهبت هي أيضاً. لكن قبل أن تغادر نظرت إلى إل تشينو من البـاب نصـف المفتوح، ابتسمت له وقالت:

«شكراً، لم أعرف التفاصيل. شكراً لإخباري.»

فيما بعد عرفنا أن العقيد هو والدها.

إن الموت المحترم يصنع دائماً قصة، حتى ولو كـان موتـاً مبجـلاً لابـن عاهرة. أردت أن أكتب عن ذلك لكنني لم أقدر. مر الزمن ونسيت الأمر.

أما عن الفتاة فلم أسمع مطلقاً أية كلمة.

احتفاء بالشجاعة/٣

روى لي سرغيو يسكوفيتش عن الأيام الأخيرة لخوسيه توها.

قال الجنرال بينوشيه: «*لقد انتحر.*»

كتب صحفي في الصحافـة الرسميـة: «*لا تستطيع الحكومة أن تضمن خلود أي شخص.*»

قال الجنرال لي: «*كان ضعيف الأعصاب.*»

كرهه الجنرالات التشيليون. كان توها وزير الدفاع في حكومة الليندي وكان يعرف أسرارهم.

اعتقلوه ووضعوه في معسكر للتعذيب في جزيرة دوسون، في جنوب الجنوب.

حكم على السجناء بالأشغال الشاقة. تحت المطر، في الطين أو الثلج، كان السجناء يرفعون الأحجار، يبنون الجدران، يثبتون المجارير، يصبون الأعمدة ويعلقون الأسلاك الشائكة.

توها، الذي كان طوله أكثر من ست أقدام، يزن مائة وعشرة باوندات. كان يغمى عليه في أثناء الاستجواب. كانوا يستجوبونه وهو مقيد إلى كرسي ومعصوب العينين. حين يصحو، لا يملك القوة على التحدث، فيصفر:

«*أصغي أيها الضابط.*»

يهمس:

«*يعيش فقراء العالم.*»

بعد أن استلقى منبطحاً في الثكنة لبعض الوقت، نهض في أحد الأيام على قدميه. كان هذا اليوم الأخير الذي وقف فيه.

كان الجو بارداً جداً كالعادة، لكن الشمس كانت مشرقة. أحضر له أحدهم فنجاناً من القهوة طيباً وصفر جوركيرا، الأسود، لحن تانغو له – أحد تلك الألحان القديمة التي كان يحبها.

ارتجفت ساقاه وكانت ركبتاه تخذلانه عند كل خطوة، لكن توها رقص على لحن التانغو. رقص حاملاً مكنسة، وهو لحن كئيب كالآخر، وكان يضغط قبضة المكنسة على وجهه النبيل، وعيناه مغمضتان بشدة من العواطف، إلى أن سقط، في إحدى الدورات، محطماً ولم يقدر على النهوض.

لم ير بعد ذلك مطلقاً.

احتفاء بالشجاعة/٤

كرس اليمين التافه واليسار البيوريتاني قسماً كبيراً من حماستهما لمناقشة إن كان سلفادور ألليندي قد انتحر أم لا.

أعلن ألليندي أنه لن يغادر القصر الرئاسي حياً. إنه تقليد في أميركا اللاتينية: الجميع يقولون ذلك. فيما بعد، حين حصل الانقلاب العسكري، كانوا على متن أول طائرة.

بعد ساعات طويلة من القصف وإطلاق النار، كان ألليندي لا يزال يقاتل داخل الأنقاض. ثم دعا أقرب المتعاونين معه، الذين كانوا يقاومون إلى جانبه، وقال لهم:

«*اخرجوا. سأبقى هنا للحظة.*»

صدقوه وغادروا، وبقي ألليندي وحيداً في القصر المحترق.

ما أهمية إصبع من الذي أطلق الطلقة الأخيرة؟

عضلة سرية

في ظهيرة لا تنسى، ظهيرة من فترة منفاي، كنت أكتب وأقرأ أو أضجر في منزلي على ساحل برشلونة، حين رن الهاتف، وأحضر لي، لدهشتي، صوت فيكو.

كان فيكو في السجن لأكثر من عامين ولقد أطلق سراحه اليوم الماضي وأحضرته الطائرة من الزنزانة في بوينس آيرس إلى المطار في لندن. كان يتصل بي من ذلك المطار ليسألني إن كنت أود الذهاب إليه: تعال في الطائرة الأولى، لدي الكثير لأقوله لك، ثمة كلام كثير. لكن هناك شيئاً واحداً أريد أن أقوله لك الآن. أريدك أن تعرف:

«لست آسفاً على أي شيء.»

وفي مساء اليوم نفسه التقينا في لندن.

في اليوم التالي ذهبت معه إلى طبيب الأسنان. لم يكن هناك ما يفعل. لقد أرخت الصدمات الكهربائية في غرفة التعذيب أسنانه العليا، ويجب أن يسلم أنها ستسقط.

كان فيكو فوجيليوس رجل الأعمال الذي موّل مجلة الأزمة ولم يضع المال فحسب وإنما روحه وحياته كذلك في المغامرة ومنحني حرية أن أفعل ما أريده بالمجلة. وبينما استمرت – ثلاثة أعوام، وأربعون عدداً – نجحت مجلة الأزمة في أن تكون فعل إيمان عنيداً بالكلمة الإبداعية والمعزولة، الكلمة التي ليست، أو حاولت أن تكون، حيادية، الصوت الإنساني الذي ليس صدى أو صوتاً فارغاً.

من أجل تلك الجريمة، من أجل جريمة مجلة الأزمة التي لا تغفر، اختطفت الديكتاتورية الأرجنتينية العسكرية فيكو، سجنته وعذبته. أنقذ حياته بشعرة، حين نجح أن يصرخ بإسمه في أثناء اختطافه.

سقطت المجلة دون أن تنحني وكنا فخورين بذلك. كان لدى فيكو زجاجة من الخمرة الفرنسية لا أحد يعرف إلا الله كم عمرها. بتلك الخمرة، في لندن، شربنا نخب الماضي، الذي لا يزال صديقاً جديراً بالثقة.

بعد بضع سنوات، انتهت الديكتاتورية العسكرية. وفي ١٩٨٥ قرر فيكو أن يصدر مجلة الأزمة من جديد، وانهمك في الأمر ميالاً، مرة أخرى، إلى صرف الوقت والنقود، حين علم أنه مصاب بالسرطان.

استشار عدة أطباء في بلدان عدة. البعض قالوا له إنه سيعيش حتى تشرين الأول، البعض الآخر حتى تشرين الثاني. ولم يكن الحكم بعد تشرين الثاني. سار كجثة، منهاراً من عملية إلى أخرى، لكن ضوءاً متحدياً شع في عينيه.

عادت مجلة الأزمة إلى الظهور في نيسان ١٩٨٦. في اليوم الأول بعد ولادتها، بعد نصف عام رغم كل التكهنات، سمح فيكو لنفسه بأن يموت.

عضلة أخرى سرية

في أثناء أعوامها الأخيرة، لم تشعر جدتي بتحسن في جسدها مطلقاً. جسدها، جسد عنكبوت منهك، رفض أن يطيعها.

قالت: «*شيء حسن أن يحظى العقل برحلة حرة.*»

كنت بعيداً، في المنفى. في مونتيفيديو، شعرت جدتي أن ساعتها حانت. قبل الموت، أرادت أن تزور منزلي، الجسد وكل شيء. وصلت بالطائرة، ترافقها عمتي إيما. سافرت عبر الغيوم، والأمواج، مقتنعة أنها كانت في سفينة. وحين طارت الطائرة عبر عاصفة، ظنت أنها في عربة، تقفز فوق شارع مرصوف بالحصى. بقيت معنا شهراً. كانت تأكل طعاماً ليناً كطعام الأطفال وتسرق الحلوى. تستيقظ في منتصف الليل وترغب بأن تلعب الشطرنج أو تتخاصم مع جدي الذي مات منذ أربعين عاماً. أحياناً تحاول أن تهرب إلى الساحل لكن ساقيها ترتبكان قبل أن تصل إلى الدرج. أخيراً قالت:

«*الآن أستطيع أن أموت.*»

قالت إنها لن تموت في أسبانيا. أرادت أن تجنبني جميع الإجراءات البيروقراطية حيال نقل جثمانها: قالت إنها تعرف جيداً كم أكره كل ذلك الروتين الحكومي.

وعادت إلى مونتيفيديو. زارت الأسرة كلها، منزلاً منزلاً، قريباً قريباً، لكي يرى الجميع أنها عادت بأفضل حالة ويجب ألا يوضع اللوم على الرحلة. ثم، بعد أسبوع من وصولها، استلقت وماتت.

بعثر أبناؤها رمادها تحت الشجرة التي اختارتها.

أحياناً، تأتي جدتي لزيارتي في الأحلام. أسير قرب النهر وتكون سمكة ترافقني، وهي تنزلق بنعومة في المياه.

المهرجان

كانت الشمس لطيفة، الجو صاحياً، والسماء بلا غيوم.

مدفوناً في الرمال، تصاعد البخار من الإناء. وبينما تنتقل من المحيط إلى الفم كانت أسماك القريدس تعبر بين يدي فرناندو، سيد الطقوس، الذي كان يحممها في ماء مقدس من الملح، والبصل، والثوم. كانت هناك خمرة جيدة. وفيما كنا نجلس في حلقة، كنا، نحن الأصدقاء، نتقاسم القريدس والخمرة، والمحيط الذي كان ينتشر حراً، ومضيئاً تحت أقدامنا.

وفيما هي تحدث، كانت ذاكرتنا قد استحضرت مسبقاً تلك السعادة. لن تنتهي مطلقاً، ولا نحن. ذلك أننا جميعاً فانون حتى القبلة الأولى والكأس الثانية، الذي هو شيء يعرفه الجميع، مهما كانت محدودة معرفته أو معرفتها.

بصمات

ولدت وترعرعت تحت نجوم صليب الجنوب. أينما أذهب، تتبعني. تحت الصليب الجنوبي المتلألئ، أعيش مراحل مصيري.

ليس لدي إله. ولو كان لدي واحد كنت سأتوسل إليه ألا يجعلني ألاقي الموت،. لا يزال هناك طريق طويل أمامي. هناك أقمار لم أصرخ بها بعد، وشموس لم تضئني، لم أسبح بعد في جميع بحار العالم، التي يقولون إنها سبعة، ولا في جميع أنهار الفردوس التي يقال إنها أربعة.

قال طفل من مونتيفيديو:

«لا أريد أن أموت مطلقاً، لأنني أريد أن ألعب إلى الأبد.»

الهواء والريح

كحمار سان فرناندو الصغير، أجتاز الطرقات جزئياً سيراً على الأقـدام، أسير فحسب.

أحياناً أتعرف على نفسي في الآخريـن. أتعـرف علـى نفسـي في أولئـك الذيـن سـيتحملون، في الأصدقـاء الذيـن سـيمنحونني مــأوى، في الحمقــى المقدسـين الجميلـين ومخلوقـات الجمـال الطـائرة وفي سـكيرين ومتشـــردين آخرين الذين يسيرون على الأرض وسيواصلون ذلك، كما ستستمر النجوم في الليل والأمواج في البحر. ثم، حين أتعرف على نفسي فيهم، أكون الهـواء، وأعرف نفسي كجزء من الريح.

أعتقد أنه باييخو، قيصر باييخو، هو من قــال *إن الريـح تبـدل هواءها أحياناً*.

حين لا أعود موجوداً، ستوجد الريح، ستستمر في الوجود.

عصفة الريح

تصفر الريح في داخلي.

أنا عار. سيد اللاشيء، سيد لا أحد، لست حتى سـيد معتقداتـي، أنـا وجهي في الريح، ضد الريح، وأنا الريح التي تهب على وجهي.

علي مولا



حكايات رمزية، مفارقات، أحلام، وسيرة ذاتية، وكل ذلك يمتزج برؤية للعالم غنية وبتأكيد للإمكانية الإنسانية.

كسي الهيكل العظمي الحقيقي لحياة الكاتب باللحم والدم في هذا الكتاب الجميل بشكل غريب، الذي يمتزج فيه ويدعم بعضه بعضاً بشكل غير متوقع كل من الشعر، والقصة، والسيرة الذاتية، والتاريخ، والفنتازيا، والتعليق السياسي.

جي بريري، نيويورك تايمز بوك ريفيو

كاليانو راوي قصص متطرف، مثل غارثيا ماركيز، إيزابيل ألليندي، ونيرودا ... إن كتاب المعانقات موزاييك، أو جدارية دييغو ريبيرا وقد تحولت إلى كلمات.

جون ليونارد، نيويورك نيوزدي

في كتاب المعانقات، يسير كاليانو على حبل البهلوان ويرتقي في الجو فوقه... وليس موضوعه إلا تنوع الحياة الإنسانية والحب.

آلن رايان، واشنطن بوست بوك وورلد

دار الطليعة الجديدة

دمشق. ص.ب: 34494 تلفاكس: 2311378